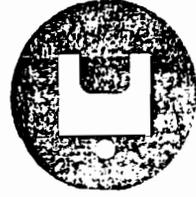


- ١ - شياطين وأرواح
- ٢ - رائع ذلك الماضي .. ولكن
- ٣ - نحن لا نؤذن في مالطه
- ٤ - وحتى لا نطفئ الشمس
- ٥ - حكاية الدرويش وصبي الحلاق
- ٦ - أحمد ونفسه في سفينة فضاء
- ٧ - الناس والقرآن
- ٨ - الكتخدا وسقاء حریم ولومبيان



## غيبوبة

رائع هذا الطب في علاقاته مع جسم الإنسان . وتظهر الروعة فيما أنجزه هذا العلم عبر قرون طويلة حتى صار إلى ما هو عليه . . . . . ومحاولاً أن يصير إلى أحسن مما هو عليه . والناس تمرض وتتكسر وتتحسر ، والأطباء يداون أو يحاولون ، على قدر العلم ، المداواة .

والأمر الهام هنا هو محاولة العلاج ، وربما تكون العمليات الجراحية هي طريق سلطاني للشفاء من بعض العلل ، وهذا ما نرجوه لأحمد بعد أن تصدعت أجزاء من هيكله العظمي ، ونرجو ألا يكون في هيكله النفسى بعض التصدع .

وقد ضاع إحساس أحمد الجسمى في ثنايا غيبوبة أوجدتها بالقوة هذه الجرعات المخدرة . . . ولا يحس الجسم ألم التقطيع فيه حتى لا يكون الأطباء جزارين ، بل على الأفراد رحماء وهم يصححون بعض ما أفسده غباء من البشر .

تحس شوق في أحماقتها وفي منطقتها العلمى كل هذا . أما أنا - الكاتب - فقد تغلقت إلى شيء من العمق .

وأعيش مع غيبوبة أحمد شيئاً من التاريخ وشيناً من مشاكل الحاضر الربوية .

وأحمد يجب القصة ويجب حكاية القصص .

## ارواح وشياطين .. ..

أمانى الفرد الكبار فيها أمان له ، وأمانى الغير الكبار إذا تعارضت مع أمانيه فيها مخاوف تستفز وتستنفر أعماق تاريخه البشرى .

وعندما دخل أحمد المدرسة الثانوية بدأ تفكير الوالدين يتبلور أكثر وأكثر ، وتحولت الدعابات إلى إصرار ، إذ عليه أن يدخل القسم العلمى ليدخل كلية الطب ويتخرج فيها طبيباً ، وسرعان ما سيكون مرموقاً ، وسرعان ما يصبح النظامى البارع الذى بهرع إليه الخلق من مشارق الأرض ومغاربها .

وكان أحد يهوى الأدب ، وله أسلوب أدبى شائق ، بل له محاولات قصصية قبل عنها إنها طيبة . ولكن لا .. وألف مرة لا ... فالطب هو طريقك يا ابنى أحمد . . . لا تغضب والدتك شوق التى حملتك تسعة أشهر ورعتك بكل حنانها وصحتها . . . . لا تحطم أمالها وامنياتها . . . .

لم تغضب للسياسة التعليمية أحمد ، فرحياً به حسب رغبته وميوله واهتماماته ، ولكن الوالدين وربما الأمرة ، ولهم للكلمة العليا ، وهو صاحب الشأن لا رأى له . ودخل كلية الطب وأمضى السنة الاعدادية فى كلية العلوم وممراتها طويلة متفرعة ومعاملها كثيرة عديدة ، وعدد الطلبة والطالبات كبير ، وأحس أنه تائه بين جمع من البشر وأجهزة فى معامل ، وبدأ يفقد شيئاً من نفسه تدريجياً .

... وكنت أرى نفسى شجيرة هزيلة فى مهب رياح عاصفة ، أذاكر فى الكتب وربما أحفظ ما فيها ، ولكنها عندى معلومات جامدة صماء لا روح فيها ... بالنسبة لى . وتدرجياً بدأت الابتسامة تنسحب

بعيدة عن وجهي ، وإن أتت للحظات فهي باهتة اللون منافقة المعنى .  
لكنتي بذلت كل ما استطعت من جهد حتى يستطيع عقلي أن يهضم  
ما لا يستسيغ . . . . . وكان بي شعاع من أمل أن أثنى رغبتى الحقيقية وأخضعها  
لرغبة والدي والأسرة . . . . . وأغرقت نفسي في التحصيل ، وبعدت  
يدي عن كتب الأدب ؛ ونأيت بتفكيرى عن القصص والشعر . ويلوح أننى  
بالغت بعض الشيء ، وكنت أريد رضى والدي ، وكان سلوكى يعجبهما  
ويزيد من دعواتهما لى .

وفجأة أسدل الستار على هذه المهزلة وتفجر البركان التابع فى صدرى  
فى سلوك الصمت الفاعل . وكانت نتيجة نهاية العام مؤلمة لهم جميعاً . . .  
لوالدين والأسرة . . . أما أنا ؟ ! ومع بداية العام الجامعى الجديد عاد  
اللاجاح ، ربما ظنوا أن شياطين من الجن قد ركبتنى . . . . . شياطين  
استطاعت أن تغمى عيني عن الحقيقة للواضحة . . . فإن عشرات الآلاف  
قدموا أوراقهم إلى مكتب التنسيق معى ، وقلة قبلوا فى كليات الطب . . .  
وكان على أن استجى ، وأن أضمح فى عيني بعض نخصيات الملح . ويظهر أننى  
أعجبت الشياطين ، ويظهر أننى أحببتهم ، وبدأت أكتب فيهم قصائد مديح  
ولا أقول غزلاً . . . . . وأحسست أننى أبتعد عن أهلى واقتراب من شرنقة  
انتفوق فيها . . . . . لكن كان على أن أذهب إلى الجامعة حاملاً كتبى  
ومذكراتى وإلا تمرض والدتى وتفاجئها أزمات كثيرة ، ويظهر أن والدى  
اكتفياً بأن يمرض واحد منهما فقط .

وددت لو عدت إلى العصر الذهبى للإسلام فيما بين القرن التاسع  
والثانى عشر الميلاديين ، وكان هناك فلاسفة وجهابذة وعابرة . وربما ألم  
الواحد منهم بأكثر من فرع من فروع المعرفة وفى اجادة بارعة تشهد له  
بالأستاذية ، وقد درسوا ما أحبوه وأحبوا ما درسوه ، ولذلك كان انجازهم

ضحكاً جباراً التهمت في نشوة جامعات أوروبا في العصور الوسطى وبعض  
الحديثة .

وكانت هذه الأعمال الابتكارية أقوى من أى ضغوط ، بل ربما  
كانت الضغوط مثيرة إلى أرنى الابتكارات والانجازات العلمية أو الأدبية  
.....

لست أدري لماذا لا ترعانا الدولة بكل مؤسساتها إذا لاح تميز واضح  
في أنا أحد عندما كنت طفلاً . . . . كان يجب أن تأخذ بيدي في حنان  
وترعاني ، وربما صرت اسماً عالمياً تفخر بي . لماذا يترك المجتمع موهبتي  
لدبل أو تضييع وسط مقررات أغلبها لا يهمني ولا يعينني ولكنها تأكل حماسي  
وتطفى الجلود في نفسى ؟ ربما لوبان على شيء من النبوغ الأدبي وأنا  
صغير ، وصارت صفقة باثة بيني وبين المسئولين ، فلا رجوع فيها ، ربما  
اقتنع والداي منذ زمن أنني سأكون رجلاً مرموقاً ، وشجعوني ودفعوا به  
إلى الأمام . . . . لكن هذا الصراع المضطرب في صدرى بين ما أريد وبين  
ما يريدان . . . . هذا أمر صعب

.....  
.....

اننى أخشى العملية الجراحية . أخاف رقاداً على سرير المستشفى في وضع  
معين يمتد عدة أسابيع ، حركتى بحساب . أخشى تعباً ومضايقات جسمية  
ونفسية لا بد من تحملها . . . أخاف نظرات العطف من الزائرين ، أرتعد  
عندما ما أفكر في خوف شوق على ، وأراها وهي تتوصل إلى الله في خشوع  
ورجاء .

لكننى أحس داخلي أمناً وطمأنينة ، بل أكاد أرتفع راحة بإحساس  
غامر يظفنى أن الله معى . . . أحس أنه أرسل من يقف ورائى . . .

( م ٣ - طفل غاضب )

لا أرى ملامح وجهه بدقة ، ولكنى أراها في ضبابية . . . ولكن فيها وضوحاً ، وقد تلوح على وجهه ابتسامة لا تذهب ، وهي واضحة في معناها ، أراها في ضبابية ولكنها مشرقة جلية . . . . .

وقد تطوف بي أفكار عن عدم قدرتي على التحمل سرعان ما تجرّفتها سيول إيماني وثقتي بالله العليّ القدير . . . لقد خفت وأنا طفل الظلام ومن (أبو رجل مسلوخة) ، خفت العقاب البدني والتأنيب وذم الناس . . . وخفت المرض وخفت النشل وعدم النجاح .

. . . . .

يقول صاحب « التربية والتقدم » وقد شدّه التاريخ إلى عصور كثيرة مضت حيث دار معظم تفكير الإنسان حول إرضاء حاجاته المباشرة ، كيف يشبع جوعه ؟ كيف يحمي نفسه من الأعداء ؟ كيف يتجنب الإصابة والموت ؟ لقد عاش حاضره واهتم به كل الاهتمام ، مع استعداد هين للمستقبل القريب ، المتمثل في حيوان ضار قد يهجم عليه ، أو خوف من غضب الجبل أو ثورة الريح العاتي . وكانت فلسفته أن يضمن اليوم ابتعاد الشر عنه . وإذا جاز لنا تطبيق هذه الفلسفة على ما يسمى بنظامه التربوي ، فقد نقول إنه كان نظاماً مبنياً على التقليد . والتقليد تم رغم وعي الأفراد ، فلكى يعيش فرد وسط تلك الجماعة عليه أن يعمل ما يعملون . ولكي يعمل عليه أن يتعلم ما يعملون ، ولكي يتعلم عليه أن يلاحظ سلوكهم ، ثم يبدأ مشاركتهم في محاكاة شديدة التماثل . وهكذا كانت تربية ذلك الإنسان ، تعلم ليعيش مع المجموعة ، تعلم ليكون متوافقاً مع أفرادها ، تعلم بالعمل ولكي يعمل .

كانت حاجة الإنسان إلى الأمن هي الهدف الأساسي لتربيته ، إذ تبلورت مشاكل الإنسان الأول حول تدبير أمور معيشته وحياته من قوى الطبيعة

الخربة ، ومن أعدائه سواء كانوا حيوانات أو بشراً . وكان الخوف هو للدافع الرئيسي لمعظم سلوكه . . . . . وفي البداية كان الخوف . . . . . الخوف في قلب كل إنسان ، وتحكم الخوف في الإنسان . تحكم في حركاته . ولم يترك له لحظة هدوء . . . . . خاف الإنسان الأول النار والعواصف والرعد والموت . . . . . ثم تعلم كيف يحمي نفسه ، ونقل إلى أبنائه وأحفاده تلك الطرائق التي أثبتت فعاليتها في مجابهة الأخطار . وكان الإنسان الأول عبداً لحاجاته العضوية ، وعبداً لمخاوفه من القوى الخفية . لذلك فإن أهدافه من التربية كانت الحصول على ضرورات الحياة للفرد ولأسرته ومسألة وتهذبة القوى الخفية التي يخشاها ويخاف منها .

فقد خاف الإنسان الأول الجماد أكثر من خوفه من الكائنات الحية ، بل إنه أعطى صفة الحياة لكل شيء ، الأشجار والصخور والعواصف . . . الخ . كل شيء يغضب ، ويرضى ، ويشور ويهدأ ، قادر على تدميره وقادر على أن يتركه لحال سبيله . وكان على الإنسان أن يكيف حياته وفق معتقداته هذه . لكل شيء روح وجسم . ويجب أن يرضى الإنسان روح الشيء حتى لا يصيبه الجسم بأضرار تهدد حياته أو تنهتها تماماً . ومن المحتمل أن هذا الاعتقاد في ثنائية الجسم والروح جاء إلى الإنسان الأول من خلال خبراته بالأحلام . وأعتقد في بداية الأمر في وجود نوعين من الأرواح ، نوع حيادي لا ينفع ولا يضر ، ونوع واقف له بالمرصاد على أتم الاستعداد للحاق الضرر به . وعلى الإنسان أن يبعد ذلك النوع الثاني أو يخذله حتى ينجو من شره .

وقد تمخض عقل الإنسان فيما بعد عن إمكانية وجود نوع ثالث من الأرواح ، أرواح صديقة ، أو إمكانية تهذبة الأرواح الشريرة واقناعها بأن تصادفه . لهذا تفتق تفكيره عن تملك هذه الأرواح بعقد الطقوس وممارسة السحر ، وتقديم الهدايا لها حتى ترضى عنه ، أو يقترب منها ،

أو يقربها منه . الأرواح غامضة وكذلك السحر وطقوسه وما يدور فيه وحوله . بهذا قصرت الشقة بين الإنسان وهذه الأرواح الغامضة . وظن الانسان الأول أنه قادر على خداع الأرواح ، أو أن الأرواح تحب هذه الطقوس وتحضرها في ارتياح غامر . وعندما تحضر الأرواح أرض الطقوس وتندمج مع الإنسان في ممارستها ، فهنا يتم التقارب وتنمو صداقة تنجي الإنسان من شر هذه القوى غير المرئية . وبهذا استطاع الإنسان الأول - على حد ظنونه - أن يأمن شر الأرواح خاصة عندما غالى ، وتعمد المغالاة بوضع قوانين صارمة تحرم عمل أشياء ، وخلق بذلك المحرمات التي تبرهن دائماً للأرواح الشريرة على حسن نية الإنسان . وأصر الكبار على أن يراعى الصغار هذه المحرمات وإلا أثاروا غضب الأرواح الشريرة .

وهدفت التربية أيام عصور ما قبل التاريخ على يد الإنسان الأول أيضاً إلى حتمية التوافق ؛ توافق الفرد مع الجماعة . وهذا التوافق ضروريه لضمان أمن الفرد وأمن الجماعة . وهل أشد من الخوف شيء يجمع بين الأفراد ؟ دعا الخوف إلى للتقارب في شكل أسر ، وجماعات وقبائل . وأدى التقارب والتعايش سويماً إلى حتمية التوافق . لذلك كانت عملية قبول الفرد ضمن المجموعة تمثل تقريباً كل تربيته . والمهم هنا ضرورة الشعور الجماعي ، وليس شعور فرد واحد ، فإن طبيعة المجتمع حتمت بجماعية الفرد لا فرديته ، صالح المجتمع لا مصلحة فرد . حقوق الفرد تنصهر في بوتقة عظمى تجمع المجتمع ككل . . . . . المجموعة لا الفرد . . . . .

وقد يعن لبعض المفكرين التأمل في هذا الموقف قايلاً ، وقد يلوح لنا أن جماعية العمل نبئت بصورة طبيعية وحتمية بين ظروف الحياة التي عاشها أفراد قبيلة ما على سبيل المثال . ولا نستطيع أن نتصور فرداً أو قلة من الأفراد ينعمون في الظل وكثرة تعمل في وهج الشمس ، أو قلة قليلة تملك الكثير وغالبية عظمى لا تكاد تملك شيئاً ، أو أفراداً لهم امتيازات خاصة

ترفهم فوق مستوى بقية ( الجماهير ) . . . إنه كان مجتمعا - فيما يلوح - ارتفعت فيه ألوية المداة الحقيقية ، المساواة الفعلية ، والعدالة في بساطتها المؤثرة وسطوتها الفعالة . كان لا بد للفرد أن يخضع لقانون الجماعة حتى يصبر منها ، وإلا عزلته الجماعة . والجماعة هنا تعنى جميع الأفراد . وسكى يعيشوا ويضمنوا غذاءهم وكساءهم ومأواهم ، ويضمنوا أنفسهم وحمايتهم ، ارتضوا شريعة ظلتهم وخضعوا لها ، ومن شذ ينذ .

الحياة ذاتها خلقت النظرية ، لم يضعوا نظرية ثم عمدوا إلى تنفيذها ، وإنما ظروف المعيشة سبرتهم طبيعياً إلى سبيل الجماعة في العمل والتعبادة ليحققوا الأمن . هذا الأمن الذى نسعى البشرية منذ عصورها الأولى إلى اليوم إلى تحقيقه ، وكانت آخر محاولة لها ( اختراع ) مجلس الأمن . وفى أعماق جوهره قد لا يختلف كثيراً عن تحقيق ما أرادته جماعات الإنسان الأول .

هدفت تربية الإنسان الأول إذن إلى محاولة تحقيق توافقه مع الجماعة . وكانت هذه التربية - بطريقة طبيعية يحياها الفرد منذ بواكير طفولته وينمو فيها . كان عليه أن يتعلم بالمحاكاة والممارسة ما يعمله الكبار لتدبير معيشتهم ، وعبادتهم واسترضائهم للأرواح . . . أو الآلهة .

.....

ويتضمن أحد قليلاً وهو يرى اليوم ربما أشبه بالبارحة ، وما نريده ، أن يكون هناك هذا القدر المشترك من التفاهم بين أفراد المجتمع الواحد ، بل بين أفراد الأمة الواحدة ، والقومية ، بل أمل يداعب خيال المتفائلين من رجالات التربية في تفاهم دولي . وهذا حلم وردى قريب من حلم أفلاطون في مدنته الفاضلة حيث يسود الحق والخير والجمال .

## رائع ذلك الماضي.....ولكن....

وحيث يستشعر الفرد صفاء وجلاء يرى ما حوله غير ما كان يراه ،  
والحزين دنياه سوداء ، والسعيد دنياه وردية ، ولا علاقة لهذا ببجمل  
أو علم ، بغنى أو فقر ، ولست أدري لماذا تأخذني عجلة الزمان في دوراتها  
كثيراً إلى الوراء وقليلاً تهتك استار المستقبل .

وحيث جسمي ليس مني الآن يفعلوا به ما يشاءون دون آلام أحسها  
أو أوجاع تؤلمني ، ولكن كل هذا مؤجل لوقت آت وعقلي يعمل ويطرق  
آفاقاً بعيدة وموضوعات الروابط بينها - ربما - غير واضحة للمتعجل  
. . . ماله يرى الطبيعة البشرية ليست هي ما ولد به الإنسان ولكن  
ما بصيره بتأثير العوامل المنظمة في بيئته الاجتماعية ، فيتأثر الفرد بالعوامل  
والمؤثرات التي يتعرض لها في هذه البيئة ، إلى جانب الغذاء ، هناك الحب ،  
أن يحب غيره وأن يكون هو نفسه محل حب من الآخرين . وقد ساد  
اعتقاد لمدة طويلة أن الإنسان يولد أنانياً وعدوانياً ، وأن عليه أن ينال من  
التربية ما يضع حداً لأنانيته وعدوانه . . . . وقد أثرت هذه الفكرة على  
اتجاهات الكبار نحو الصغار . . . كما أثرت على مجريات الأمور في المجتمع .

وقد ظلم المجتمع الكثيرين جداً جداً من الأطفال ، فغضبوا . وأغدق  
المجتمع على قلة فأغضبوا أيضاً الكثرة الغالبة . وكان في مصر الفرعونية  
الملايين مثل أحمد وكانوا غضبي ، وكانت هنالك قلة لم تغضب . نفس  
الحال عبر التاريخ وفي مختلف المجتمعات إلا أقل من القليل .

. . . . . كان على رأس المجتمع المصري القديم الفرعون المؤله وعائلته  
وكبار رجال البلاط . وتأليه الفرعون أعطاه الحق في حكم الناس الذين

وجبت عليهم طاعته وتقديسه . والفرعون هو مصدر الحكمة والمعرفة . . . . . وبعض الرؤساء يرون أنفسهم اليوم فراعنة .

وتلى هذه طبقة الكهنة وبعض النبلاء ، وهم يكونون الأستوقراطية الاجتماعية والفكرية في ذلك الوقت ، ومن كبار رجال هذه الطبقة القواد العسكريون . . . . . وكون العسكريون طبقة تلت مباشرة الكهنة . ثم تأتي طبقة من كبار التجار وأصحاب المهن الأثرياء وهؤلاء كونوا الطبقة المتوسطة . ثم تأتي طبقة قوامها الحرفيون والرعاة والفلاحون والعبيد ، وتكون هذه الطبقة الأخيرة ٩٩٪ من السكان . وأنا . . . . . اقصد أجدادى القدماء ، كانوا من هذا الحشد الذى لا يحصى . . . . . وهم قوام المجتمع .

ولم تتح لى فرصة التعلم الذى يرضينى ربما لسيطرة كهنوتية عارمة . وغامضة فى طقوسها واستبدادية فى أحكامها . . . . . ربما لفقر مادي . . . . . لا أذكر إلا أنى علمت فى الاصطبل الملكى للذرية حيث كان مدرسة عسكرية التحق بها أبناء النبلاء ليتعلموا الكتابة والعلوم العسكرية . . . . . وقد تعاملت مع ألوان من الغباء ذات أصل نبيل . ولكنى كنت معجباً ومؤمناً بالبعث . . . . .

. . . . .

أما زميل لى جاء من شرق آسيا فحدثنى عن بوذا وكيف كان يستخدم فى نشر تعاليمه طريقة المحاوراة والمحاضرة وضرب المثل . ولم يدع بوذا أبداً أنه أوحى إليه ، بل عزا لنفسه الاستنارة . ولم يذكر أنه كان يتكلم بلسان إله . وقال إن كل ما يعرفه الإنسان هو احساساته ، وإلى الحد الذى نستطيع أن نبلغه بعلمنا لا نرى سوى أن المادة كلها ضرب من القوة ، صيرورة وفناء . وأن الروح أسطورة من الأساطير ، وأن العقل للذى

يربط أفكارنا إن هو إلا شبح توهناه ، وما هو موجود حقاً هو إحساساتنا وإدراكاتنا التي تتكون بصرية آلية في هيئة تذكرات وأفكار . وتتكون النفس أو الذات من الوراثة والخبرات التي تتم خلال تجارب الحياة . . . . . ويرتدى كهنة البوذيين رداء أصفر ، وقبل دخولي حجرة العمليات رأيت رجلاً يرتدى معطفاً أصفر اللون ، له صفة غريبة ووجهه شاحب وعظمتا وجنتيه بارزتان .

ولم يسمح إلا للقلة القليلة بالتعلم في الهند القديمة ، ولم يدخل جامعاتها إلا النذر اليسير جداً ومن طبقات عليا كالأبراهمان . والكهنة من هذه الطبقة ، والكهنوتية تورث . . . وهناك أدنى الطبقات وهي طبقة المنبوذين ( الباريا ) . . . وما عاد الغضب يجديهم شيئاً فقد شعبوا غضباً وذللاً . . .

ولم يكن ماركو بولو يدري الكثير عن الصين القديمة ، ويفخر زميل صيني بتعاليم المعلم كوتنج وقد حفظها الصغار حفظاً تاماً في قديم القديم من الزمن ، وقد أراد لهم الحكام تعليماً يؤدي إلى خدمة النظام القائم وإعداد الموظفين للدولة . . . وأضحك وأنا أقول . . . فقط في الصين القديمة ؟ وربما لم يفهم هذا الأخ الصيني ما أتصده لأنه استدرج مكملًا في فخر وتبه . . . كل شيء كان يتوقف على الامتحانات ، كانت هناك امتحانات تؤهل لوظيفة من الوظائف الصغرى في المقاطعات أو يصبح الناجح عضواً في طبقة الأدياء ، وهؤلاء من يحصلون على درجة شيو دزاي . بل يصبح من حق الناجح أن يتقدم لامتحان آخر أرق وأصعب ، يعقد مرة كل ثلاث سنوات ، ومن ينجح فيه يعين في وظائف الحكومة الصغرى ، وهي أرق من وظائف المقاطعات . ومن حق الطالب أن يتقدم للامتحان مرة أخرى وثالثة ورابعة . . . إذا رسب طبعاً . وقد يموت في سن الثمانين وهو راسب ، وهذا من حقه ، أي يموت راسباً !!

أما الناجحون فيحق لهم التقدم لامتحان نهائى فى كلية (هان لين يون) أى غابة الأفلام ، وهى أكاديمية إمبراطورية . وكان الامتحان يعقد فى بكين ذاتها فى أغرب قاعة امتحان ، تتكون من عشرة آلاف حجرة ، لكل طالب حجرة يأخذ إليها غذاءه وشرابه حيث يستمر الامتحان ثلاثة عشر يوماً . ويعطى الطالب بعد دخوله الحجرة الأسئلة . . . . . وهى غريبة . فثلاً يطلب منه أن يكتب قصيدة عن صوت الجاديف والثلال الحضرء والماء . . . . . وربما شيئاً عن نقيق الضفادع ، ويسأل عن كنفوشيوس والأدب والأخلاق والفلسفة فى هذه الحجرة الرطبة رديئة التهوية . وكان الناجحون يعينون فى وظائف الدولة الكبرى . ولم يزد عدد الناجحين عن واحد فى المائة .

ربما لم يكن القوم فى تلك الأوقات يهتمون كثيراً بالعلم والتعليم ، ونحن لا نشك عليهم بعقولنا ومفاهيمنا الحديثة ، إذ لكل زمان قيمة . ومن المحتمل أن كان هناك أمثال أحمد . . . . . وربما غضبوا - ولم يضع غضبهم ، إن كان قد حدث . على أن المؤكد أن فلاسفة من الإغريق تشدقوا بالديموقراطية ولكنها كانت عرجاء ، فقد كانت من حق السادة الأحرار ، وكانوا قلة عديدة . . . . . سادوا وتعلموا وتركوا البقية تن غضباً فقد أهملت بشرتهم وكانوا عبيداً لأسيادهم .

.....

وعجده الزمان تدور ، والدنيا تتغير ولكن البعض ما يزال يعيش الحاضر فى أجداد الماضى . حق لنا وواجب علينا أن نذكر الماضى بإنجازاته الضخمة ليعرف كل أحد ما كان عليه أجداده وكيف أن حضارتهم تدهل عالم اليوم . ريف أن كنوز نوت عنخ آمون أوجدت جنوباً فى النارة الأمر نكة اسمه توتامانيا ، وكيف ينهر علم اليوم بإنجازات آلاف السنين

مضت . . . . ولكنه كان مجتمعاً قائداً في وقته وكانت الدنيا صغيرة محدودة - على حد ما نعلم - وكون المصريون أول امبراطورية في التاريخ . ثم تساءل عن التاريخ وأنه كان تاريخاً للملوك والحكام والقادة ولم يكن تاريخ الشعوب ، تاريخ الفرد العادى . . . رجل الشارع الذى كون ، وما زال يكون ، الغالبية الساحقة من السكان . . . . وقد تجاهلهم الشرق الساحر . وعندما حتمت ( أمريكا ) المدرسة العامة بدخلها كل الأطفال فى منتصف القرن التاسع عشر ، كان هذا حدثاً تاريخياً . . . . حق لكل الأطفال أن يتعلموا ، وتتنوع أشكال المدارس ( الابتدائية ) ، وكانت هناك مدرسة الصف الواحد يجمع مختلف المستويات التعليمية . جرأة حتمها الموقف . أكرر أن الموقف حتم صبغة معينة للتعليم

هذه حقيقة يجب أن تؤخذ بكل اعتبار ، وبكل شجاعة فى محاولة جادة لإعادة النظر فى القوالب التعليمية .

يجب أن نذكر أجدادنا القديمة ، ونرفع بكل الإجلال والاحترام مفكرتنا الجهابذة عبر العصور ، ويعرفهم كل أحد فهم أجداده وعليه أن يجعلهم ويرى فيهم قدوة . لكن أن يقف الأمر عند حد الإنهار بالماضى فقط ، وترديده فقط ، فهذا وقوف ومحلل سر ، بل إن استطعت فإلى الماضى ، وقف . ربما كان استكشاف حجر رشيد إبان الحملة للفرنسية على مصر دافعاً للاهتمام الشديد ، والشديد جداً ، بحضارة مصر الفرعونية . هذا خير ، ويجب أن يعزز ، ولكن أجداد الماضى لن تضعنا حيث يجب أن نوضع فى عالم يتقدم بسرعة صاروخية .

فرسان مغاوير يمتطون جياداً عربية أصيلة وفى أيديهم السيوف اللمع التى تعكس أشعة الشمس فى وهج يعمى الأبصار حققوا لنا انتصارات تنحى الهامات أمامها ، فهى عزيزة مشرفة . هذا حق وصحيح ويجب

أن نعزّبه وندرسه ونكرره في كل فخر . كانت حروباً اعتمدت على تكتيكات عسكرية وشجاعات فردية ومهارات في القتال في مواجهة أفراد بأفراد . واليوم طائرة واحدة تستطيع أن تقتل الآلاف وتدمر قرية ، وربما عضلات قائدها الجسمية هزيلة . . . !! ربما يستطيع بالكاد أن يحمل سيفاً واحداً قليل الوزن .

كل شيء تغير ؛

وعلينا نحن أن نتغير . . . . في نظرتنا للماضي وللحاضر والمستقبل .

وبينما نحن نغرق في بحر التجديد للماضي ، كانت مجتمعات غربية تصعد جبال التقدم في مختلف مناشط البشر . بل إنهم شجعونا أن نعيش الماضي بكل ما فيه . هم أخذوا من ماضينا أحسن وأعظم ما فيه وبنوا عليه واقتصدوا من عمر الزمن دهوراً . . . وصار لهم تقدم .

وتركونا نعيش الماضي . . . ثم عندما بدأ تقدمهم يهرنا وأحسننا أننا بعبدون عنهم . . . فلمسنا مشجب القيم الروحية مضادة للقيم المادية ، واستراحت نفوسنا وهدأت ، إذ هم قوم ماديون ونحن نقديس القيم الإيمانية الروحية . . . . وارتويتنا هذا إلى الدرجة التي صدقناها . . . أى والله صدقناها . قيمنا الروحية تدعونا إلى أقصى درجات العمل والجد في تعاون صادق لخدمة الجميع . تدعونا إلى المحبة والتكاتف وقوفاً صفاً واحداً في تآزر وتآخي . . . سواسية وأخوة متحابين أمام الله . . . في الصلاة . . . وفي العمل .

## نحن لا نؤذن في مالطة...

بل ، لا ننفخ في قرية مقطوعة !!

لا ينجح المجتمع التكنولوجي إلا إذا كان مجتمعاً متعلماً . والأدلة حولنا تؤكد هذا غرباً وشرقاً . والتأكيد هنا أنه على الرغم من الاهتمام بالعلوم الطبيعية إلا أن الاهتمام مازال قائماً بالعلوم الإنسانية . . . . ولكن هناك شيئاً واضحاً من التوازن . وقد عرفنا في منطقتنا العربية اهتماماً أكثر بالإنسانيات - وبالشعر والأدب بالذات - وغفلنا كثيراً عن التطور الحادث في أجزاء من العالم في ميادين العلوم الطبيعية . ولم تنس هذه الأجزاء من العالم الأدب أو الفن ، بل صار تقدم في مختلف المناشط والإنجازات البشرية

السمة العاقلة هي التوازن والإتزان ، وكما يتطلب الجسم طعاماً ومسكناً وملبساً فهو أيضاً يحتاج إلى الترويح الذهني والوجداني . وهذه ليست رفاهية قاصرة على ذوي الدخول المرتفعة ، أو المستويات الاقتصادية العالية ، ولكنها موجودة عند البشر فطمة الأديم وبصلة يحتاجها فقير إلى ربه ، وفقير في ماله ، هو أيضاً يحتاج إلى الاستماع لأغاني صادرة من جهاز ( كاسيت ) دفع ثمناً له من عزيز عرقه وتعبه ليستمتع بالفن كما يراء هو . هو في رغبته في الاستمتاع كالثقف الذي يهرع ليستمتع إلى موسيقى باخ أو بيتهوفن ، وكلاهما يهتز في نشوة وتقدير .

فتحت التكنولوجيا العصرية آفاقاً للملايين من أفراد الشعب ، وصار التغيير الحادث مؤثراً فعلاً على مسار تفكير عامة الشعب . بل تغيرت النظرة إلى القيادة . . . ربما في رغبة إلى العودة لتقاليد إسلامية قديمة ، فالتائد ليس بخيرهم . . . وهو يطلب أن يساعده الناس إذا أحسن وأن يقوموه

إذا حاد عن الصواب أو أخطأ . . . خاصة في مجتمعات تتحول تدريجياً من الزراعة إلى الصناعة . لكن لا بد من وجود صفوة من العالمين الذين يعرفون أكثر ليقودوا الذين لا يعرفون أو يعرفون قليلاً .

قد يحدث أن تتركب قطاراً ينهب بك الأرض من العاصمة إلى مدينة أخرى ماراً بحقول خضراء . وإذا نسيت أنك في قطار واستطعت رفع أعمدة التليفون والتلغراف لكان ما تراه هو نفس ما كان يراه أحد أو كل أجدادك الذين عاشوا على هذه الأرض عدة آلاف من السنين . . . حتى في مآكلهم وعاداتهم ، إلا بعض التغير الطفيف .

هو عمل جبار أن يحاول المسئولون عن تربية الشعب أخذه من دنيا التاريخ الذى مضى إلى فرص ومخاطر العصر الحديث وتكنولوجياه .

وكان الله في عون القادة الذين يرومون الإصلاح الحقيقى والذين عاشوا ويعيشون في القرن العشرين ، وقد بدأ يشيخ عندما يكون جنين القرن القادم ، لهذا فتشهد هذه السنوات أيضاً كاسماً من البروباغندا - الدعاية . . . ربما كان من حق التربية أن تلعب دوراً رئيساً هنا ، ولكن أين هي ؟ .

إن ثورة التوقعات الصاعدة التي تجتاح الكثير من أرض هذا الكوكب تدفع البلايين من البشر إلى تطلع مؤداه أن اليوم يجب أن يكون خيراً من أمس ، وهو أقل من الغد . بعض الناس يكتفون بأن يكون اليوم غير مختلف عن الأمس ، وبالتالي فإن الغد هو حال اليوم . هنا يكون للتوقف أو التقدم إلى الحالة الراهنة ، وهذا في ضمير العالم تخلف .

ما ثمن التربية ؟

إذا حدث أن دخل ميدان الزراعة ميكنة حديثة ، أو اقيمت مصانع

كمبيوترية الطابع ، فالأمر يتطلب تعبئة تربوية عاجلة وعميقة . الثمن غال قطعاً ، لكن المردود مبشر وآمل . لا بد من عقول بشرية تواكب التحديث في الأعمال الزراعية والصناعية ، وإلا كانت النتائج وخيمة والعواقب مؤلمة .

لا بد من انطلاقة تربوية وثابة . ولتتصور طائرة بركابها وملاحها وقد شرعت في القيام إلى رحلتها ، وعلى الممر تتوقف برهة ثم نسمع هدير المحركات ، ثم بأقصى سرعة تلتهم طول الممر ، وقبل أن تصل إلى نهايته تكون قد علت فوقه ثم يخفض جسمها عجالاتها . . . ثم يسمح بالتدخين وفك الأحزمة .

وينقسم العالم إلى ثلاث فرق : فريق يملك وفريق لا يملك وفريق بين بين . ولك أن تقسم العالم إلى ما شئت من أقسام أو فرق . ولكن المؤكد أن هناك دولاً غنية وأن هناك دولاً فقيرة ، والتعليم يختلف هنا عن هناك . وقد تساعد الدول الغنية الدول الفقيرة ، ولكن في شخ وبخل ، بل ربما استنزفت الغنية عقول الفقيرة ، وهي تأخذ ( باليمين ) ما أعطته بالشمال ، ويظل الفارق الحضارى يتسع .

ولم يحدث اتفاق بين العلماء - بعد - على مقولة أن اصلاح التعليم شرط مسبق لتحقيق النمو الاقتصادى . إذ يؤكد بعض علماء الاقتصاد أن استثمار الموارد البشرية عملية بطيئة ، ومن ثم فلا يجب أن تعطى لها الأولوية . إن تطبيق نظام التعليم الأساسى فى مصر ومد فترة الإلزام من ست إلى تسع سنوات وتغيير المناهج . . الخ كل هذا لن يعطى نتائج يمكن أن يحس بها إلا بعد نهاية هذا القرن - إن شاء الله تعالى . ويرى هؤلاء العلماء فى الاقتصاد أن خيراً فى اقتحام مسالك قصيرة ومباشرة لتحقيق ارتفاع فى الدخل القومى . . . وتدرجياً يبدأ فى رفع الكفاية التعليمية . . . . . ويتقدم ويتحسن ويتجود التعليم .

لا يدري أحمد ماذا كان يحدث حوله فهو في غيبوبة ، وربما تقاطر أطباء ومختصون حوله ، إذ يلوح أن ثمة خطراً يهدده . وبقدر ما كانت تسمح له الحركة كان يتململ في ألم . وقد أحس بالأيدى تتحسس أجزاء من جسمه وأصواتاً مختلطة تطرق سمعه ولكنها آتية من بعيد وهو لا يستطيع أن يميز منها شيئاً ، أرح حتى لو استطاع فما يعنيه هذا إلا في القليل ، فأمره لربه خالقه . . . . .

يرى أحمد خيوطاً طويلة لا تنتهي من الدم الأحمر تخرج من أجزاء متفرقة من جسمه لتعود وتدور حوله في حلقات ودوائر تزداد اتساعاً . ثم هوفى عين إعصار عات يمتصه ويصعده إلى طبقات عليا يرى منها أمواج البحر وهي تكسح أكواخ وبيوت الصيادين على الشاطئ ، ثم تحمل الرياح العاتية سفن الصيد بالصيادين وتلاعب بها وبهم والسماك يتطاير في كل اتجاه . . . . .

يحس أحمد برأسه وكأنها بوابة كبيرة تشطرها سكين ضخمة فتفلقها نصفين . . . ويظهر له مخه وتجاويفه ، وخبوط الدم تنساب في انشاءات سريعة ومنتظمة ، ثم مطارق خفيفة تدق هنا وهناك وتسمع أذناه أصوات الدق فتنتفح عيناه في غضب مصحوب بدعر . . . وبسرعة تعود الرأس كما كانت . . . وتهدأ أصوات الطرقات تدريجياً . . . ويحس أنه يسقط من علٍ وأنه يريد أن يصبح ولكن الأصوات تنحبس . . . ويحس أنه يجري مسرعاً إلى هاوية ويريد أن يقف ولكنه لا يستطيع ، يحاول أن يمسك ساقه بيديه فيفشل ، ثم يصل إلى حافة الهاوية ، وإذا بقاعها يندفع عالياً حتى يتساوى مع سطح الحافة وتزول الهاوية . . .

وقد يطول التذكير في مسألة البدء بالتنمية الاقتصادية أم بالتعليم ،  
ونصبح قائمين في حلقة مفرغة ، مقربين من حكاية الدجاجة أم البيضة .  
أما هذه المسالك القصيرة الموصلة إلى رخاء اقتصادى وارتفاع في الدخل  
القومى ، فقد يكون هذا ممكناً في حالات مثل اكتشاف البترول أو مناجم  
لمعادن مطلوبة . . . وبشدة عاجلة .

وقد ساد في مجتمعاتنا العربية إحساس بأننا نقدر القيم ( الروحية ) ،  
بينما الغرب يقدر القيم ( المادية ) . والظاهر أن هذا الأساس ليس سليماً  
تماماً ، فالبشر عامة اجسام وأرواح ، والمقصود هنا السواد الأكبر الأعظم  
من البشر ، وهناك على الطرفين شواذ ، ولا حكم لنا عليهم . صحيح أن لنا  
- كعرب - قيماً روحية إيمانية لا بد من الاعتزاز بها وتقويتها ، وهى  
قيم غنية جداً لأنها مستمدة من الدين ولأنها جاءت من السلف . وما يجئ  
من السلف الصالح ويتمشى مع مجريات العصر فربحاً به . ولكن انجماها  
مثل التواكل والمبالغة في التأني وانتظار الفرج . . . هذه لا نجد لها مكاناً  
في عالم اليوم .

قد نجتمع ونفكر سوياً - وهذا خير وفيه - في إمكانية أن يسير التقدم  
الاقتصادى يبدأ بيد مع التقدم التربوى . فالتقدم التربوى حادث مع ارتفاع  
ومضاعفة ميزانية التعليم ، وهذا شرط أساسى وعدم حدوثه فكل أوغالبية  
ما يجرى في محاولات اصلاح التعليم تكاد تفشل . . . . . والتعليم في مصر  
في حالة تدعو إلى التذكير والحزن ، ولن يكون إصلاحه ممكناً إلا بنظرة  
جديدة وثرورية في ميزانية التعليم . إصلاح بدون زيادة اعتمادات - مالية وليس  
بالضرورة أن تدفع الدولة - أمر يكاد يكون مستحيلاً . وقد يجب البعض  
أن يرضى المسئولين بأن هذا الاصلاح ( المجانى ) ممكن . . . وهذا وهم ،  
بل فيه خطر داهم .

كما أن تقدماً اقتصادياً في الزراعة والصناعة والتجارة وإعانة بناء الدولة إدارياً دون أن تسنده وتعضده قوى بشرية متعلمة أمر غير معقول لا علمياً ولا منطقياً . إذن فليسبر التقدمان جنباً إلى جنب . وهذه مسألة تحتاج إلى إعادة النظر جذرياً في أمور تتعلق بالتربية والاقتصاد .

وتستطيع التربية أن تسهم في عمارة نمو والارتقاء بالمجتمع من ثلاثة مداخل :

الأول هو مدخل الحراك : إذ تستطيع التربية أن تعد الأفراد الذين يعيشون تقاليد وعادات مجتمع تقليدي إلى تحرك جسمى وعقلي واجتماعي لمجتمع يتطور . والمقصود أن يكونوا على استعداد للتوافق مع المجتمع الجديد .  
الثاني : فهو العمل والرغبة الصادقة في الانجاز : وهذا يتطلب قناعة لدى أفراد المجتمع بضرورة الاسهام ، وله بأقل القليل . ولكن يومياً - إن أمكن - في إعادة بناء المجتمع ، والتربية الصادقة قادرة على إعداد الأفراد لهذا الاسهام .

أما الثالث : فهو المعقولة : وأكرر أيضاً إن التربية الصادقة هي القدرة على تعليم الأفراد كيف يحلون ناقدين قبل أن يتقبلوا ويصدقوا ، كيف يبحثون في البدائل قبل التصديق . . . كيف يفكرون علمياً ومنطقياً .

.....

هل يستطيع المجتمع بكل ما فيه أن يتمهل في تعقل وأن يتساءل في علمية وواقعية ويقول في صراحة الواقع ، وفي واقع الصراحة بأن على كل فرد أن يتربى . . . وأن يعرف كل واجبه مهما كان كبيراً أو صغيراً . . . يعرف أنه يوجد قانون وضع لخير الجميع ؟ لا بد من وجود تفاهم وتوافق

( م ٤ - طفل غاضب )

على كيفية التعامل . . . والدين المعاملة . وأن تكون هناك القوانين الصارمة لمعاقبة المخالفين والمنحرفين في حزم وعزم . وأن يكون المشرفون على تنفيذ القوانين هم أول من يحترمونها ، وعقوبة المخالف منهم أشد . وعقوبة من يعلم أشد من عتوبة من لا يعلم .

ويجب أن نبدأ بتعليم من لا يعلمون بالقوانين التي تحدد المعاملات في المجتمع وباستخدام أجهزة الاعلام ودور العبادة ، والعقاب ضرورى . فلا يصح أن ينقل التليغزيون إلى البيوت أقذر الألفاظ في مباريات كرة القدم ، والرياضة أخلاق . . . . ولا يعاقب من يخدش الحياء فيستشرى ، والمفروض أن الشرطة في خدمة الشعب ، والمشاهدون قطعاً من الشعب ويجب أن يحموا .

إذا صارت في العقوبات استثناءات فقل عليها السلام . فالمستثنى يزيد مخالفاته لأنه لا يعاقب ، ومن يعاقب ينتقم لنفسه في غفلة من القانون . وكنت أرجو أن ينجح الدين في أن يخشى الفرد الله سرأً وعلانية ، والقانون الإلهي واضح في هذا ، تلك مسئولية ضخمة تقع على كاهل خطباء المساجد ووعاظ الكنائس .

أن يعمل المجتمع بأفراده على الاسهام في النمو والتنمية بالعمل واحترام القانون . . . . احترام من كل فرد كبيراً كان أم صغيراً . . . . هذا نخذ حضارى :

## وحتى لانطفئ الشمس . . . . .

جدير بلجان تطوير التعليم أن تدرس في عمق وفي صدق موضوعي العلاقة بين الساطة في المجتمع والتعليم ، وما زال الاعتقاد قائماً بأن تربية

الفرد تربية سليمة أمر يتطلبه التطور الاجتماعي متطلماً إلى التقدم . والتربية عملية ترتبط بسياسة المجتمع ، فالعالمية العظمى من دور التعليم في العالم النامي حكومية ، والقناة القليلة هي مؤسسات خاصة ، ومع ذلك فينبى تخضع للإشراف الحكومى . وطالما أن المعاهد والمؤسسات حكومية فينبى مرتبطة ومتعلقة وممنذة لأهداف الدولة .

وقد أدركت اللجنة الدولية لتطوير التعليم برئاسة سير إدجار فور رئيس الوزراء ووزير التربية الفرنسى أن تحقيق مجتمع متعلم مثقف لا يمكن أن يحدث بين يوم وليلة ، وربما احتاج الأمر إلى أجيال . ويضع التقرير فى اعتباره عدة أمور منها : أولاً : توجد هوة «حقيقة تتزايد عمقاً واتساعاً فى الثروة بين أمم متقدمة وبين أمم تحاول أن تنمو . . . . . وربما كان الأمر أن محاولات هذه الأمم النامية لتقليل المسافة بينها وبين التى نمت تبوء بالفشل مع حصول تقدم واضح عند الأمم المتقدمة ذلك لأن هذه الأخيرة تنمو بسرعة أكثر مما تنمو به الأمم التى هى أقل . وثانياً : ماذا تعنى التربية ؟ وقد ازدادت المجتمعات تعقداً وتتضخم وتتزايد المعرفة حتى تكاد الأنفاس تنقطع وهى تحاول اللحاق بها . وقد صار شك فى فائدة الصيغة الحالية للمدرسة بوظيفتها التقليدية ، والتعليم العالى بصورته الراهنة . . . . . وربما أرى أن الأمر الهام ، والهام جداً لا فيما يتعلمه المتعلم من محتوى ، ولكن فى أن يتعلم المتعلم كيف يتعلم ، وأن يعلم المعلمون المتعلمين كيف يعلمون أنفسهم بأنفسهم . ثالثاً : وربما قد أصبح من الأمور الملحة جداً الاهتمام بتعليم الجماهير وهى ذات فعاليات وتأثيرات فاعلة بقوة فى المجتمع . وحتى إذا نجحنا كل النجاح - وهو أمر مشكوك فيه فى تصورى - أقول إذا استطعنا تعليم الصغار كما يجب فسوف يظل الكبار يظل كبار مخوف لنا . من تأثيراتهم التى تتعارض أحياناً مع ما يتعلمه الصغار ، ثم إنه يصير شك فى تعلم ابتدائى فى فصول تزيد الكثافة فى بعضها عن خمس وخمسين طفلاً تراصوا فى صعوبة على مقاعد يصعب الجلوس عليها .

وهناك دول نامية حاولت أن تستخدم تكنولوجيا تربوية متقدمة ، ولكن محاولاتها ذهبت أدراج الرياح إلا من بعض الآثار الخفيفة ، إذ أن البذرة لم تجد الأرض الطيبة ، يعنى أن المحاولة لم تجد المستوى الاجتماعى الخاص للآباء ، بل لم تجد المدرسين الفالحين للعمل ، وصار هناك هذا البون الواسع بين تكنولوجيا تربوية متقدمة وبين إطار ثقافى واجتماعى متخلف .

وبرى عالم سويدى اسمه أوستن أوزن أو هوسين ونسبه أحيانا حسين !! يرى فيما يرى ويتحدث عن دلائل عدة تشير إلى عجز التربية عن الحلول محل الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية . وهو يرى ، وقد أرى أنا معه فى تحفظ ، أن هذه الإصلاحات يجب أن تسبق تطوير التعليم تطويراً كبيراً .

( بهذه المناسبة دنا وصلت القاهرة منذ عدة اسابيع وكل يوم أطلع فى الجرائد عن تطوير التعليم . . . أجل التهانى )

ويجب أن نحترس وأن نتكلم فى حذر فإن هوسين وأحمد فى رأيهما أننا لانستطيع تغيير بناء مجتمع وإعادة تشكيله ورفع مستوى المعيشة فيه بمجرد ادخال نظم تعليم متقدمة ، إذ لا بد من تغيرات أخرى . . . التربية هامة جداً ولكنها ليست كل شىء ، بل هى جزء من مسلسل مترابطة أجزاءه .

.....

فى السويد ، فى أقصى شمال أوروبا ، كان هناك نقاش حول تطوير التعليم واصلاحه منذ بداية هذا القرن أو قبله بقليل ، وكان الكام حول الإزدواج أو الثنائية فى نظام التعليم . . . فرق بين الأطفال من أسر موسرة وأسر غير موسرة ، كما كان الحال عندنا أيام زمان . فى السويد أعلن

الحزب الاشتراكي الديمقراطي لإيمانه بالنظام الشامل الذي يضم مرحلة التعليم الإلزامي . وبعد أن تولى الحكم في بداية العقد الرابع لم يلق إلى التعليم أهمية كما كان متوقفاً منه والتي بمعظم الاهتمام إلى الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية المتصلة بمسائل ومشاكل العمالة . ولم يتأت الإصلاحات إلى التعليم وتحسين أوضاعه وتطويره إلا بعد الحرب العالمية الثانية وبعد أن كانت الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية قد سارت شوطاً كبيراً . . . . .

في البلاد التي قد يصبح التعليم فيها بديلاً ديمقراطياً لأصل وحسب ونسب وعقارات و ثروات . يعلو صوت المنادين بتكافؤ الفرص . وقد يلقى التغيير هنا مقاومة على المستوى السياسي ، ونحن مازلنا مع أوزين أو حيين في السويد . . . . . وقد يستريح القائمون بالأمر ويقيموا التعليم كما هو ولا داعي لديموقراطية أو تكافؤ فرص . ولكن حدث في نهاية الخمسينات أن تحولت المدارس في ريع المناطق التعليمية إلى نظام التسع سنوات الممتدة ، بمعنى أن التعليم الإلزامي يمتد إلى تسع سنوات بدلاً من ست سنوات . وهذا نفس الذي حدث في مصر هذا العام عندما حولت أربعمائة مدرسة إلى نظام التعليم الأساسي ذي السنوات التسعة على سبيل التجريب ، كما حدث في السويد بالضبط منذ إحدى وعشرين سنة .

وقد أمرت هيئة الإذاعة السويدية استملاء للرأي العام ، ظهر منه موافقة ثلثي المستمعين ( ممن سئلوا ) على النظام الشامل ( تسع سنوات ) ، ومعارضة ريع الأصوات ، ولم يستقر الباقون على رأي معين . وقد عارض المدرسون النظام الجديد . لكن البرلمان أقره ونفذ . لكن كان لا بد من تجديد .

. . . . .

. . . . .

التجديد والتطوير أمران ضروريان في الحقل التربوي . ولم يحدث هذا



للمنفذ المسئول أن يدأل عشرات الأسئلة وأن يتلقى اجابات شافية حتى يكون هو مدافعاً عن التجديد في التنفيذ لا ناقداً له عاملاً على عدم تنفيذه بالجديّة اللازمة .

وبقادر ما كان في الطريقة السكّية في تعليم القراءة والكتابة للمبتدئين من أفكار علمية ثبت نجاحها في بيئات أخرى ( أتسكّم عن طريقة أسماها أولاد الحلال طريقة شرشر !!! ) إلا أنها وجدت معارضة شديدة في مصر . وقد أحسّ المفتشون والمدرسون دفناً آمناً فيما كانوا يعرفونه ، وعدم أمن وخوفاً في هذا الجديد الوارد عليهم وكان منهم الله صوب إلى علمهم ومهنتهم ، فقاوموا في ضراوة . . . ليقتلوا شرشر هذا .

وغضب أحمد لشرشر ولم يغضب هو !! . . . فهو دائماً يتطلع إلى الجديد المستحدث . . . !! وغضب أحمد المدرس متسائلاً عن مدى الاعتماد على نشاط الجماعات وفروع النقابة . وكيف يمكن تحقيق أهداف التجديد بسبل ممكنة وسهلة ميسرة ؟ ويتساءل هل يجب أن تخضع عمليات تغيير أساليب ونظم وأشكال التعليم لقوة القانون ؟ هل لا بد أن تأتي المقرّحات دائماً من فوق وبقوة ؟ وعلى الكوادر التحتية أن تنفذ سواء فهمت أو لم تفهم . ثم يحاسب الرئيس مرءوسيه من على كرسى الإدارة ، من عل ، وعلى المرءوس أن يكون محل اتهام .

وقد يجد المرءوس نوعاً من الإحراج المشفوع بضرورة أن يحاسب في كلامه مع رئيسه لأن رئيسه يفعل هذا مع رئيسه هو ، ورئيسه هو يفعل هذا مع رئيسه الذي هو رئيس أعلى لرئيس أحمد ، وهذا الرئيس الأعلى ( نسييا ) يفعل نفس الشيء مع رئيسه . . . عملية الإحراج المهذب هذه . . آفة . ربما كان واحد من أسبابها أن رئيساً ما ، وربما انخالية العظمى ، لا يتصور أبداً أنه يخطئ لأنه دائماً على صواب . . . لست أدري .

عندما كنت مدرساً كان لى أمل أن يكون تقدم اتجاه أو فكر جديد في عملية التدريس أو النشاط آتياً لا عن طريق رأسى - أعنى من فوق إلى تحت - ولكن عن طريق أفقى بتمتد ليشمل القاعدة وهى التى تتعامل مع المتعلمين . والقاعدة تتخمر بعد قناعة ، ولا تنفذ بعد أن تؤمر ولا تمرر كيف تنفذ . . .

## حكاية الدرويش وصبي الحلاق

يقول أحمد

وكان يمكن أن يتحقق هذا فى عهد محمد على ، وكانت عنده فكرة واضحة وهى تكوين جيش قوى لأسباب غير خافية . ولم تكن عنده معاهد تعليم سوى الأزهر الشريف وبعض الكتاتيب واشباه المدارس الأتونية . ونهض محمد على بالتعليم بادئاً بقمة الهرم حتى تكالبت عليه - وعلى مصر - القوى الأجنبية ، وفى عام ١٨٤١ حذد عدد الجيش وبدأ صرح التعليم يتهاوى .

كنت فيما يسى بالمدرسة التجهيزية حيث أعد للمدارس العليا . وكان هذا فخراً كبيراً لى ولأسرتى فإن (الدولة) تدفع لى ، بل أعطتنى حمراً يصعد بى إلى القلعة ، وينزل بى منها . ثم هذه الملابس المزركشة ناصعة الألوان ، ولباس للرأس يزيدنى هبة ووقاراً . وكان لا بد وقد صرت لى هذه الحال من النعمة أن يجلس أبى مع غيره ويفكرون فى زواجى . فقد كبرت . وكانت شوق إبنة تاجر ثرى هى المرموقة . وتزوجنا . وفرمان ١٨٤١ تلون بنوده .

وكانما ضاع مبنى كنز ثمين كان فى متناول يدى ، وكنت قادراً على اقتناصه عن جدارة وعن قدرة . ولكنه ضاع ، وضاعت معه شوق بعد

أشهر قليلة . فقد أراد التاجر الثرى أن يكون زوج ابنته من العلماء المرزبين في العلم الحديث ، ولو عنده المال يكفيه ويكفى مائه معه ، وكان قد عز عليه العلم ، ولم يكن له ابن . وقد قفلت الأبواب العلمية أمام هذا الابن الوارد إلى الأسرة تحت اسم زوج الإبنه . وترزت العلاقات من جراء ذلك الفرمان اللعين ، وما كان ساسة فرنسا وإنجلترا والباب العالى يعلمون أنني سأضار .

وجميع لا حول له ولا قوة من البشر نفذوا ما أملى عليهم . وغضبت ، وصحت في صدري كما شئت ، وكان هذا أقصى ما استطيع عمله . ومعى مئات بل آلاف من الأطفال والشباب غضبي . فقد دنانا المجتمع ثم خذلنا المجتمع . وكان حقا علينا أن نغضب من المجتمع .

غضبت لأننى أردت خير بلدى وأهل بلدى بتعاليمى وتحسين معرفتى ، فأنا منهم ولهم . وكبتت الأمانى العظام بأوامر رجال السياسة والحرب . وهناك في الشرق الأقصى البعيد - اليابان - بدأت في نفس الوقت حركة تحضر وتقدم نلمس نتائجها ونعجب بروعتها .

وقد دن المصريون على أتم الاستعداد للتغيير ، وربما وجدنا فيه هدفاً لحياتنا ، فقد لمسنا أشعة من ضوء تنير بعض المجتمع وهى تنبئ متفائلة عن توقعات صاعدة وآمال مرتقبة .

أملوا في غد خيراً من اليوم .

وكانت طموحاتهم إلى أمس ليس بالبعيد ألا يكن غدهم أسوأ من يومهم . بنى إن أطياًفاً من الأمل داعبت مخيلات بعض البنات ، وقد حرمت الأئشى قرونا من التعليم ، وكانت في وقت ما دخلت الأزهر - فبا أعلم - لكن هذا ماضى وولى . وقد سمعت البنات عن حضور حبشيات ليتعلمن

أصول عمل القابلات في قصر العيني . استهلال مبارك . . . ربما يتطور  
وكان سهلاً وأد الأحلام .

.....

وجاءت أحمد أختها عن شوق ، إذ يجب أن تعود زوجته إليه وأن  
يعود إليها . وقد كان . وعادت الأمر الزوجية إلى مجراها ، أما جدار  
العلم والتعلم فما زال موجوداً وفي تصميم أن يقف عند هذا الحد . طيب  
هذا ، وحماء عنده من المال الكثير ، فلماذا لا يشد الرجال إلى إيطاليا  
أو فرنسا ، ولتكن فرنسا بالذات ، وسيرة الشيخ رفاعة الطهطاوي عطرة .  
واضطر أحمد أن يعمل عند والد زوجته التي وضعت طفلاً ، اسمه أحمد ،  
وتلاشت فكرة السفر بعد مرض عضال ألم بوالده .

.....

.....

يقول أحمد

حاولت مصر الدخول في ميدان الصناعة ، وجلتها صناعات تخدم الجيش  
في هذا الربع الأول من القرن التاسع عشر ، ويمر أكثر من قرن وما زالت  
مصرنا في مرحلة ما قبل الصناعة . وهي مرحلة أعلى بقليل من مرحلة  
الزراعة ، بل إن الزراعة ذاتها يمكن أن تكون قاصرة على كفاية بطون  
المواطنين وربما أيضاً لكفاية أسواق أخرى في الخارج . يتطلب الأمر  
في مرحلة التحول من الداخل إلى الخارج ثورة في الاتجاهات والعقليات ،  
ناهيك عن الميكنة والتكنولوجيا الزراعية المتطورة . التغير في الاتجاهات ،  
وربما القيم ، خطوة رئيسية في للدخول إلى مرحلة التصنيع . الزارع المنتظر  
يجوار حتمه غير العامل الفاعل بيديه أمام آلة جبارة . ورائحة المصنع قطعاً  
تختلف تماماً عن جو الحقل .

لكن التحول إلى الصناعة أقل إشكالاً من التحول من زراعة تقليدية إلى أخرى تقدمية . ذلك أن انتقال العمال اليلويين من قرية ما إلى مكان آخر أقيم فيه مصنع كبير ، لا يعنى فقط التحرك المادى ، تحرك جسم من مكان إلى آخر ، ولكن يحمل معه تكسير نظام حياة وعادات وتكوين أنماط حياتية مغايرة تختمها الظروف الجديدة . التغيير فى الزراعة لا يدعو إلى الانتقال من بيئة إلى أخرى ، ولكن يتم التحول والفلاح بين نفس الجيران والأصدقاء وعلى نفس الأرض .

.....

ويرى أحد السنين تطوى طياً تارة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء ، ووجود أطفال مصر عابسة فقد خذلهم المسئولون وكان إحسانهم بهم ضعيفاً . . . . بل تركوا فى أحقاب كثيرة دون أن يحننوا من العلم إلا النذر اليسير ، ويرى ألوية العثمانيين ترفرف فى سماء القاهرة وجنودهم يسيطرون وفى قوة ، ويتشرون فى الدلتا والصعيد . ثم آلاف من المماليك استجلبوا من مصادر عدة . وركبوا خيولهم واستلوا سيوفهم وامتدت لهم أرض مصر فى اتساع واستسلام .

وانتشر ممثلو الديالى العثماني فى قرى ونجوع مصر ، واحتقروا الفلاحين وعاملوهم بقسوة بلغت حداً شك فيه أحدهم أن فلاحاً شرب اللبن الخخص له ، وفتح بطنه ليظهر صدق كلامه ، وحتى يكون الشك حقيقه .

وغضب أطفال مصر ، واشتد غضبهم عندما رأوا جحافل المهرة من الصناع وقد سيقوا إلى التمسطنطينية ، وقد كان هؤلاء هم أساتذتهم فى الصناعات ، وأطفال مصر يتلمذون على أيديهم . والآن قد ذهبوا . . . .

.....

## يقول أحمد باكياً

مضت أيام قليلة وإذا بنا نفاجاً بالأسطوانات وقد غابوا عنا ونحن ما زلنا صبية بين أيديهم . وبخشنا عن غيرهم وكنا نعلم حق العلم أننا نبحت عن إبرة في تل من القش . وكان لا بد أن نتعلم ( شيئاً ) حتى نستطيع أن نتزوج عندما نكبر . وانتهى بي المطاف إلى دكان حلاق الأسطوانات حسونه . وكان معي ثلاثة صبية أنا أفقهن رتبة ولذلك كان عليّ أن أعمل أقل الأعمال قيمة . وكان الأسطوانات حسونه المزين يقوم إلى جانب الحلاقة بتعاطي المداواة بالمحجم ، أي كاسات الهواء ، ورأيت لأول مرة فحدث لي إعجاب به وبمهارته ، ونسبت الأسطوانات الذين ذهبوا إلى القسطنطينية . ثم كنت كثير الجلوس إلى رجل ( وقور ) تتدلى من عنقه عشرات المسابح ويرتدى ثياباً لها ألوان حمراء وخضراء وصفراء . . . . . وعلى رأسه عمامة كبيرة ويملك ذقناً طويلة لون شعرها يتدرج من الأسود إلى الرمادي إلى الأبيض . ثم هو يتكلم ألفاظاً أحياناً تسمع ولا تفهم وأحياناً تكاد تسمع ولكنها تصدر منه وكأنما ضم كل ثلاث كلمات في كلمة واضحة ، وهي لهذا لا يمكن أن تفهم . ولكن المستمعين يظهر أنهم فاهمون . . . وأنا أيضاً .

وناداني ذات يوم أن أكون له تابعاً وأترك حانوت المزين فهو رجل كلع قاس جاف . وأغراني بالكسب ( الحلال ) إذ سيعلمني كيف تكتب الأحجبه وسوف أستطيع أن أعمل ( عملاً ) للمحبة أو الكراهية خاصة إنني أعرف القليل من الكتابه وهذا يكفي . . . هذا الدر ويش أرادني صبياً له .

. . . . .

. . . . .

كان الصبي في دكان المزين يترقى في سلم التعليم تدريجياً ويمر في كل درجاته

إبتداء من كنس الدكان ورشه وتنظيف كل شيء فيه وإحضار الطلبات للزبائن من مكان قريب . ثم يتدرج الصبي مع تدرج عمره ، ويوم عظيم له عندما يسمح له بمفرده أن يمسك المقص ويتعامل مع قما زبون غالباً ما كان طفلاً صغيراً فقيراً ويستحسن أن يكون بيتياً . وكان أحمد في حيرة فهو مطلوب لشيئين وقد حلا له موضوع كاسات الهواء ومعالجة شعر القوم بالوس والمقص ، كما حلا له هذا المجد الدرويشى الاجتماعى والسطوة المتمثلة في موضوع الأحذية والتمتمة ورائحة البخور وتقبل الهدايا والعطايا . ومن يدري فربما كان هذا العمل أو ذلك أيسر في تعلمه من الشغل مع المعادن بأنواعها أو العمارة بأصنافها وأقنية الخلق بعروضها . زقارن ووجد بعد حديث طريف مع مقوال شهى النكتة أن التخرج في ( كلية ) البخور أسرع من التخرج في ( كلية ) الخلافة ، فهو على الأقل - أيضاً - لن يخضع لسلسلة من الملاحظات والامتحانات على أماكن تجمع الشعر في وجوه وأقنية البشر ، ولن يضطر - حتى يكون أصطى - أن يدعو نقيب المزينين ومساعديه ويبل لهم السكر في الماء و . . . الخ مما قد يكلفه حتى يؤذن له بأن يكون حلاقاً مبتدئاً .

.....

ويقول أحمد

فرحت سريعاً فقد قررت أن أكون صاحب سلطة وكل علمى على يد استاذى ، وكان يعطينى القليل كل شهر أو أكثر . وذات يوم وقد بلغت طول قامته واه توت لحتى هبرج لى ثوباً . ولبسته وصرت له مساعداً . وتزوجت فتاة اسمها شوق . وكسبت الكثير من السذج ، وبدأت أشبع واتسع بيتى وكبر مقامى بين الناس . . . . . وكبر إبنى أحمد وصار غلاماً . وكان عنده كل ما يريد ، ولكن سحابة من الحزن كانت تغطي وجهه . . . . .

ووجدته ذات يوم يشتعل غضباً .

سأله : مالك ولديك كل ما تريد وأكثر ؟

قال : هذا يومي ، وماذا عن الغد ؟

هذا الصغير ابن الدرويش الصغير يتناول في أسئلة لا حق له فيها . . .  
ألا تكفيه بركاتي وتسابق الناس إلى ويقبلون يدي ويملأون بيتي بخيراتي -  
أقصد خيرات الله - وملابسه ونزواته ورغباته . . . وكل شيء  
تحت أمره .

قال : ما تعلمت حرفة ولا كنت صبياً ، ولا دخلت كتاباً ، ولا قرأت  
على فقيه . . . ولا شيء مطلقاً . . . وقد صرت تعليماً نسياً منسياً :  
وفكرت من أين أتى هذا العفريت الصغير بهذه الأفكار الكبيرة . ونهرته  
كما يجب أن يفعل الأب عندما يخرج ولا يعرف كيف يجب ابنه على  
أصلته الحرجه ، وطردته من الحجرة وخرج من الباب . ودخلت من  
النافذة في نفس الوقت الذي خرج فيه قافلة من التساؤلات جعلت دروشتي  
تدوخ .

من أنا ؟ وما هذا الدجل الذي أفعله ويصدقه الناس ويدفعون بسخاء ،  
وأأكل ملء البطن ، وتكثُر المسابح حول عنقي ، وأضحك على الناس ،  
وأبكي في داخلي أمام نفسي . سئلت : كيف تقف أمام ربك تصلي وأنت  
تعلم من أنت في غيك وضلالك ؟

سئلت : ماذا يحدث لو أن الأمر انكشف ؟

هنا انبريت وصرت هرقلأً وأنا أجيب : هؤلاء قوم سدج جهلاء  
لا يعرفون شيئاً ، وصل الضحك عليهم ، فعقولهم ضيقة وآفاقهم ضحلة  
ودنياهم محدودة ، والمسابح تستهويهم ، والكلام الغامض يأخذ بألبابهم ،  
والبخور يخدرهم ، والشيخ يقنعهم . وذكر اسم الله يخرسهم .

قال قائل : ذكر اسم الله . . . في هذا الجو الخادع ! ! أهذا قول يقوله  
مسلم ، وتصير تجارة ؟

عرفت لماذا غضب ابني أحمد ، لقد تكشف له بعض الأمر ، وأن  
طعامه وملبسه حرام وسكنه يؤرثه شيدها الفساد والكفر والدجل . لهذا  
بكى ، ولهذا يغضب . . .

ربما كان الأولي بي أن أعلمه صنعة شريفة ، ربما كان دكان الأسطي  
حسونه الحلاق مكاناً مناسباً له . . . ولي . وقد فات الأوان لي وقد تلوثت  
بالدجل والفساد . . . ربما أجد له مكاناً عند أسطي حلاق يقبل ابن  
درويش دجال .

## أحمد ونفسه في سفينة فضاء .

إلهي يا خالقي وأنا عبدك وابن عبدك . . . . .

أين أنا ذاهب في هذه السفينة الفضائية . . . أراي أعانق النجوم وأسبح  
في المجرات الكونية وأستشق عبيراً من عوالم لم نعهدها نحن سكان الأرض .  
وقد فقدت السرعة معناها وصرت في اللامتهدى وطلعت معنوياتي على  
ما دياتي . . . . . وصرت لا شيء في شيء لا أدري ما هو . وتبخر جسمي  
وصرت عقلاً . . . . . يسمو .

. . . . .

من بعيد عميق أحس أحياناً إحساسات باهتة لا طعم لها ولا لون  
ولا رائحة ، ولكن أشياء حادة تعبت في جسمي ، واحس أصواتاً خافتة  
ولكنها ذات ألوان ، بل أشم طعاماً غريباً له إيقاعات . . . . . وتلمس  
أصابعي نغمات ، ويحس له ألوان أطراف مختلطة في تموجات . . . . .

وتحظى سفينة الفضاء ساجحة في الكون الواسع في انطلاق هو الصاروخ  
... لا ، هو الشهاب ... لا هو أكثر آلاف المرات من هذا .  
وأحسست أن السرعة تزدن والزمن يضيع ويصبح الأمر فوضى بالنسبة لى .  
وأردت أن أبحث عن الجوع وعن العطش فلم أجدهما .

قلت يا أحمد فلماذا لا تبحث عن ربان هذه السفينة الفضائية المخترنة ،  
ووجدت نفسى قائماً بل ساجحاً في فضاءها متجهاً إلى حيث يجب أن يكون  
... ولم أجده ... وصمت وصمت ... وعرفت أنى هنا وحدى .  
وقلت أمرى إليك يا ربى . يا خالقى . سألت نفسى ، ونفسى سألتنى  
... إلى أين ؟ وإلى متى ؟ قلت يا نفسى أنت أعلم بما بى وأمرى وكلته  
إلى ربى ... حلّى عنى . قالت نفسى : وإلى أين ؟ فنحن معاً على الخير  
أو الشر . وأسكتت نفسى بى فى شدة وقد استسلمت لها ، ولكن  
فى عزة ، وضمتنى إليها ، وأحبيت هذا ، واحتضنتها فى لفة . . .  
وضحكنا . . . !!!

قلت : يا نفسى إن السفينة الكونية تسبح عابثة معرودة بين المجرات  
والنجوم والكواكب ، وأنا أخشى على - أقصد يا نفسى - من مهالك  
نحن فى غنى عنها ، ولا يوجد للمركب قبطان ولا حتى بحارة كونيون . . .  
هلا تغيثينى وتغيثى نفسك . وابتسمت وهى تدرى مغزى ما أقول .

وقادت نفسى مركبة الفضاء ، واستشعرت هدوءاً وراحة ، فقد  
تعهدت نفسى بى ، وهذا جميل . واشتقت إلى الزاد ، فإذا بشيء ينزلنى  
فى بلعومى ، وأحسن به يملأ معدتى ، وأعقبه سائل كفانى وأشبنى . سألت  
نفسى وهى فى موقع القيادة . هل أكلت ؟ قالت : وأطعمتك فى نفس  
الوقت . . . لعلاك شبعت ؟

. . . . .

أحسست باختناق مفاجئ . . . وأحسست بمركبة الفضاء تترنح .  
وكأنما هي تهوى إلى أعماق كونية سحيقة . . . بل إلى لا حيث هناك  
منتهى .

في ثانية هي أقل وأقل من وهج الوهج رأيت عينين تحتها للثام وخلفت  
هذا لمحت رجلاً في لهفة وخوف وسمعت مهمة . . . . كل هذا في معشار  
من الثانية الحافظة .

وصحت إلى نفسي : ماذا حدث ؟ قالت : مالك هذا الطفل المدلل . .  
نحن في طريقنا فاهداً . قلت : أى طريق ؟ وكيف أهدأ ؟ . . . وماذا  
يحدث ؟ وأنا أخاف نفسي وأخشاها ، فأثرت الصمت الرهيب . وأصدرت .  
نفسى إلى أمر أن أهدأ . ولم يكن أمامى إلا أن أهدأ . فهدأت .

ملايين النيازك والشهب والتفجرات في هذا الكون الهائل ، والسفينة  
تمرق بين كل هذا وذاك . . . والله يرعاها . . . وضياء ساطعة ، ثم  
ظلام دامس ، وصعود وهبوط ، ثم اقتراب من الشمس . . وفجأة تبعد  
عنا ونحن نبعد عنها . . . وتصيح نفسى قائلة : أمامك مجهر أنظر في  
زاوية XLY 0047 ، ونظرت في الزاوية المجهرية بسرعة ولا أدري كيف .  
قالت : هذه الأرض . قلت : والله . . وأنا أرى نقطة في بحر . قلت :  
كيف عرفت أنها الأرض ؟ قالت : ألا ترى بيتنا واضحاً .

الحق . . الحق . . أنني بدأت ، وللأسف الشديد ، أشك في قوى  
نفسى العقلية . وآثرت الصمت المرعب . وجاءنى صوتها : إنه بيتنا في  
أمريكا . . . لقد أهمل من دفعنا له الدولارات ليعتنى بالحديقة . فتمسد  
هلمكت بعض نباتات الصبار ، ثلاث نباتات بالضبط ، هل رأيتها ؟ قلت :  
الحقيقة لم أرها . قالت : عرفت الآن ، إذ بعد اعلانك بالزاوية كان

( م ٥ - طفل غاضب )

لا بد أن أحدد القارة والولاية والمدينة والشارع ورقم البيت . لا عليك  
نحيت . المرة للقادمة . لكن الآن استعد فنحن إلى اللامتنى متجهون ..

أقول الحق ، والله هو شهيد ، علمى بدأ يتضاءل ، كل ما أذكره أن  
هنالك عوالم بينها وبين الأرض مسافات تقاس لا بالأميال ولا بملايين  
الأميال ، ولكن بقياس الضوء ، وسرعة الضوء ١٦٨.٠٠٠ ميلاً في الثانية  
الواحدة . أنت تعمل عمليات حسابية - إذا استطعت - لتعرف كم المسافة  
في سنة ضوئية ، يعني اضرب هذا في ٦٠ لتحسب المسافة في دقيقة - ثم  
في ٦٠ لتعرف المسافة في ساعة ، ثم في ٢٤ لتعرف المسافة في يوم ثم في  
٣٦٥¼ لتعرف المسافة في سنة ضوئية . لا تلجأ إلى هذا الذي اشترته بيضعة  
جنيات ليحسب لك عمليات الضرب والقسمة والنسبة المئوية والجذر  
التريبي . إذا حاولت معه ، فسوف يقوم ويلطحك على خدك الأيمن  
في أحسن الظروف .

.....

إلهي ، يا خالقى ، وبإبداع هذا الكون ، وأردت لى أن أهيش على  
كوكب الأرض ، وهو كوكب جميل وصغير صغير صغير إلى أقصى حد  
الصغر وأنا فى هذا الكون المائل الذى أبدعت خلقه وتنظيمه .

أسألك ياربى وأنا فى ملكوتك المائل الجبار ونحن على كوكبك للصغير  
جداً ، وعلى جزء صغير جداً منه ، وقد نشأ فيه علماء أفذاذ فى عصور  
مضت . ونشأ فيه أفراد أفذاذ فى سنوات قليلة مضت ولكنهم لم يجلدوا  
الفرصة بين أهلهم وعلى الأرض التى عاشوا عليها ، أرض مصر ، وهاجروا  
وأنجزوا وحققوا انتصارات علمية هائلة . وهم الآن غضبي . أطفال  
كبار غضبي .

في داخل كل واحد منهم طفل غاضب . هو يصبح غضباً ويتألم  
في غضب ، إذ كم كان يسعه أن يضع علمه بين أهله وعلى تراب بلده .

أيها الناس الذين تسمعون وتقرأون ، السلطان سليم أخذ خيرة الحرفيين  
عنة إلى الآستانة . فنضب معين الصناعة الفنية في مصر . اليوم ترجو صفوة  
العقول وصفوة الأيدي العاملة ، بل أية أيد عاملة ، الذهاب إلى مراتب  
البتروول . وأبحث عن عامل ماهر في القاهرة فلا أجد إلا عابلاً رديئاً  
زاد دخله في الأسبوع عن مرتب رئيس جامعة ! ! اليست هذه مصيبة ،  
ولكنها الواقع ... المرير .

.....

حطت السفينة على كوكب ما في فلك ما . وجاءت نفس أحد إليه ،  
وقد اشتاق إليها واشتاق إليه . وجلسا في إحساس بشيء من الإرهاق ،  
وبعد بشيء من (الجوع) . واستراحا وشبعا بطريقة لا يعهدا سكان  
كوكب اسمه الأرض . وتركوا السفينة وكانت قد حطت على أرض هذا  
الكوكب . ووجدا حشداً في استقبالهما . أفراد عجب في كل شيء ،  
ألوانهم ، أزيائهم ، شكلهم ، رؤسهم أجسامهم أقدامهم . أما اللغة  
فقد انسابت إلى أحد سهلة ، ولم يتكلم ولكن أفكاره انسابت إلى عقولهم  
سهلة . وهدأت نفسه إلى نفسها فانسحبت إلى داخلية . وذهب معهم .  
وفي قاعة ضخمة فيها آلات وأجهزة ومجاهر لم يسمع حتى في الأحلام عنها ،  
توقف وسألته نفسه في داخلية أن يسألهم عن الأرض وما يجري فيها . وسألهم  
دون أن ينبث بينث الشفة ، فأخذوه إلى مجهر ضخم . أدخلوه فيه ورأى  
إضاءة غريبة في ألوان لم يعهدا ورأى أنه يقترب إلى مجاهل بعيدة . . .  
أحس أن حاضره يذهب مسرعاً إلى حاضر آخر . سوف يعيش حاضراً  
آخر . يقول أحد : بُعد هذا الكوكب عن الأرض لا يستطيع عقلي أن  
يتصوره فهو يقاس بالسنوات الضوئية . وأنا يرى الأرض ، وبالذات

في الأسكندرية عام ٣٠ قبل الميلاد ، وكليوباتره مع وصيفتها التي حملت  
سلة بها حية سامة . أراها . . أراها

إلى كوكب آخر نقلوني إليه في سرعة وكان بعيداً ، ورأيت معركة  
قرب أكتيوم وأساطيل كليوباتره وأساطيل الرومان . . أراها ، وأرى  
دماء التتلى تمتزج مع ماء البحر . . . . لحظات لا أكثر . أرى التاريخ  
كما حدث وكما وقع ولا يستطيع أحد أن يزيفه أو يحوره ، أراد بعيني  
رأسي بل وسمع الحوار والأصوات . أية متعة لكاتبى التاريخ ، واعتقد  
أن غالبيتهم لو أتاحت لهم فرصة ما أنا فيه لمزقوا كتبهم وأعادوا كتابة  
ما حدث بصدق في التاريخ . ونحن ندرس التاريخ كما كتبه المؤرخون ،  
وربما هم منحازون ولا يقولون كل الصدق . وعلى التلاميذ أن يصدقوا  
وأن يحفظوا حتى ينجحوا .

وانتقلت إلى كوكب آخر ، ومازلت محل إكرام وإعزاز ، وإذا بي  
أرى عشرات الآلاف من فلاحى مصر وعمالها ، وجوهر الصقل على منصة  
يصدر أوامره ، ورجال على أعمدة . . . . ورجال أشداء بالقرب من  
أجراس متصلة بالحبال . وفلكيون يرصدون النجوم . والصمت يسود  
في ترقب . وتخططيور على الحبال فتدق الأجراس ، وتبدأ جموع من العمال  
في بناء المدينة الجديدة . والفلكيون في حيرة فكانوا في انتظار شيء ما ،  
وعندما بدئ البناء صاح جوهر ، وقال الفلكيون : القاهر في الطالع .  
أرى كل هذا . أعظم الكتاب وأعظم المخرجين ( السينيائين ) ، وأعظم  
المصورين بأعظم الأجهزة لا يستطيعون أن يظهروا ما أراه . وبدئ في بناء  
قاهرة المعز لدين الله الفاطمى . . . .

ونقلة أخرى إلى كوكب قريب نسبياً من الأرض ، وتطلعت إلى  
ساعات مضت في ميدان روكسى ، ورأيت ما حدث لى بالضبط كما وقع

وكانه شريط (سينائي) أحكم تصويره يمر أمام عيني ، سامعاً الأصوات وكان يتبقى أن أحس الآلام ، ولم أحسها . . . . ومن أعماق شكرت المولى القدير . وكان بي إحساس أن جولتي في الماضي قد انتهت ، وكان على آلة الزمن أو عجلته أن تأخذني إلى شيء من المستقبل القريب ، وكان هذا أمراً يشغلني دائماً ، وحاولت دراسة « علم المستقبل » ، وأعجبني جداً كتاب « صدمة المستقبل » ، وشاهدت عدة مرات (الفيلم) الذي أنتج عن هذا الكتاب ويحمل نفس عنوانه . وأتصور مستقبلاً للتربية مبنياً على ما حدث في الستينات والسبعينات . وهو مستقبل يزيد الفجوة الثقافية بين الدول المتقدمة والدول التي تنمو . . . . وهذه الأخيرة عليها عبء ضخم ومسئولية لا أدرى كيف تتحملها . وأخشى من استعمار ثقافي في العقود القادمة ، وقد لا يستطيع المال أن يحارب هذا الاستعمار . وليس الموقف يتحمل إجراءات إصلاحية تطويرية في التعليم تبدأ بعمل أوراق عمل ثم دعوات لحوار يتلوه حوار ، ويتمخض هذا عن رغبة في مزيد من حوار .

كان الله في عون المسؤولين ، وقد يحس بعضهم إحساسات معينة ، وفي ذهنه أفكار معينة ، ولكن التيار السائد يسود ، وتظل الإحساسات إحساسات والأفكار أفكاراً . . . . . وتمر الأيام !!

في تصوري أن إصلاح التعليم في محاولة لقفزات تقدمية (نسبياً) يحتاج إلى تصافر جهود متنوعة في تخصصاتها . لا ينفصل التعليم عن المجتمع وهو متأثر بكل أنشطة المجتمع . والتعليم المريض العليل كالجسم الذي إذا اشتكى عضو فيه نداعت له كل الأعضاء بالألم والقلق والسهر والحمى . لهذا فإن اجتياح بعض العاملين في الحقل التربوي لتحويل وتطوير وتعديل وتبديل وإصلاح إلى فلاح . . . . أمور أمامها عشرات من علامات التعجب والاستفهام .

يتم غالبية أفراد المجتمع بالتعليم ، فلما أنهم مروا به ، أو أولادهم يتعلمون ، أو أنهم مصرون على ألا يتعلموا . ويقول المربون إن للتربية قوة ، ويزيدون القول بأن العصر عصر للتربية . هذا حسن ، ولهذا فإصلاح التربية ( أو كما يحب البعض - للتعليم ) يستدعى بالضرورة أن يجلس علماء الاقتصاد والاجتماع والسياسيون والعسكريون والنفسانيون والأطباء . . . وغيرهم مع رجال التربية القادرين . تتضافر كل هذه التخصصات وغيرها .

\* \* \*

من العاهات الثقافية والآفات الحضارية ما يحدث في بعض الإجتماعات لإصلاح أو تطوير أو بحث كبير . ربما كان كل واحد من المجتمعين استاذاً جهيلاً وفتحلاً كاملاً ، أو بعضهم ، أو أن هذه صفات أعطاها لنفسه واقتنع بها . ثم يحاول أن يقنع المجتمعين بها ، وتتحول قاعة الاجتماع إلى حلبة استعراض للعضلات العلمية ، وهنا تنهار أروع وأهم قواعد النقاش في جماعة .

البعض ينصت لهاجم أو ليعارض وليثبت أنه أقدر الجالسين علماً . . . وقد يتفق إثنان فيصفق كل للآخر ويمطر كل الآخر سيلاً وراء سيل من عبارات الإعجاب والإنهار . . . ونادراً ما نجد واحداً يقول : لا أعرف . والبعض يعرف كل شيء عن كل شيء . . . إلى هذا الحد من الدجل العلمى . . . . والبعض يجلس صامتاً حتى يعرف اتجاه الكبير أو الرئيس الذى يقود الاجتماع ثم يتكلم بما يجب هذا الكبير أن يسمعه . أكرر وسوف أكرر كما مارست الدراسة والعمل والحياة في دولة متقدمة أن هناك فرقاً بين الرئاسة الإدارية والقدرة والأصالة العلمية في تخصص لم يتخصص فيه الإدارى الكبير . هكذا يجب أن تسير الأمور . الأمر مشاركة وشورى . . .

ولتبتعد عن العنوبات ليس . الصوت العالى بالضرورة يعبر عن علم رصين ،  
ولا الصوت الخافت دالاً على قلة دراية ، ربما العكس هو الصحيح ، وربما  
هذا هو الأرجح . لو سادت العلمية والموضوعية في اجتماعاتنا وأطفت  
نيران الحسد والحقد سرف بصير الحال إلى أحسن . . . . .

كان لا بد لي أن أزدخل فيما يقوله أحمد وأحاول توجيه مسيرة أفكاره  
في غيبوبته ، وانتهر الفرصة لأذكر الزاري بأن أحمد في غيبوبة وهو يأخذنا  
فيها إلى آفاق غريبة . . . . . ولا تسأل كيف ثم تسجيل كل هذا ، فأبحر  
العلم عميقة ، والغوص إلى أعماقها صعب . . . . . ولذيد . ولنعد إلى عجلة  
الزمن وآلته : وتوقف الحديث عند « صدمة المستقبل » . . . . . يا أخ  
أحمد ماذا ترى إذا استطعت بفكرك أن تطوى السنوات إلى القرن  
الحادى والعشرين ؟

ربما أكون قد أغضبته ، فتملمت أفكاره ، وربما أحسُّ عقلة  
أو حبة في نطقه ، لأن صمتاً ران . وانتظرت ، وطال الانتظار بعض  
الشيء ، وقطعه أحمد في عناد ونحد . . . . .

قال أحمد : كان يمكن أن يمر هذا اليوم كغيره من الأيام في كُتّاب  
الشيخ عبد الوهاب قريباً من باب الفتوح . لكن شيئاً عجياً حدث . ووجه  
العجب فيه أنني تناولت بالحجة فيه على سيدنا ، وهو طويل عريض  
وأنا قزم صغير بالنسبة لجسمه الفارع . ويظهر أنني أفحمته فلم يستطع أن يقرع  
الحجة بالحجة ، واستخدم سلاحه في الاقناع وهى عصا طويلة ، قربنى منه  
وأهلب ظهري بها ، ولم أحس برداً ولا سلاماً ، بل آلاماً دفعت الدموع  
إلى عيني . . . . . بلى إنه طردنى من الحجرة لقله أدبى ، وسوء تربيتى .  
ووجدت نفسى فى أحضان الشمس ، واستقبانى بالترحاب وفد من الذباب  
أشبع وجهى قبلات وأحبوا المقام عليه .

وذهبت إلى البيت غاضباً ، وضافت الجدران حولي ، وأصبح المكان خانقاً ، فاندفعت خارج البيت قاصداً متجر والدي في الغورية ، وهو عطار له شهرة وتأثيره التوابل من أقصى الدنيا ومن أقصى مصر أيضاً ، وله مكانة مرموقة بين التجار حتى لقبوه بالشهبندر ، وكان يضحك كثيراً ! ! وكان يعقد مجلسه كل صباح أمام متجره مع رفاقه يشربون القرفة واليانسون ويدخنون ، بينما هم يتحدثون . وما أكثر ما جلست قريباً منهم استمع إليهم ، وأتعلّم وأعرف ، وكان معهم أحياناً رجال أفاضل وعلى علم . وأعجبت بما كانوا يقولون . وكان هذا هو السبب فيما ألهب ظهري اليوم ، فقد عارضت سيدنا بما عرفته وتعلمته منهم .

وصلت ورآني أبي ، غاضباً . واقترب مني وسألني . . . وانهمرت الدموع من عيني . . . .

كان لا بد لي ، وأنا لست أحمد ، أن أتدخل مرة أخرى ولكن برفق فأكلت القصة التي سيحكها لوالده . وربما أحس شيئاً من الحرج ، وبدأ يتكلم هذه المرة في الموضوع المراد وقال أحمد : عفواً فقد أخذتني ذكريات أجدادى إلى الوراء ، وأنا لست منهم براء ، فقد تعبوا وغضبوا غضباً شديداً .

## الناس والفئران

عفواً وأنا أقول إنه ليس من المستبعد أن يتحدث المربون في المستقبل القريب عن الأنزيمات التعليمية وكبسولات البروتين للذاكرة ، بل وجوب مضادات حيوية أيضاً للذاكرة ، ثم كيمياء المخ . وقد أتعب علماء النفس أنفسهم سنوات كثيرة عاملين بكل همة وجدانية مع الفئران والحمام والقرود

... الخ في محاولات مضمّنية للوصول إلى أعماق عملية التعلم حتى يمكن أن  
ستفيدوا منها في تعليمهم البشر . ولكن للأسف الشديد ظلت الحيوانات  
حيوانات وظل الطفل البشرى بشراً .

لكن لا ، وعلينا أن نتمهل فإن هذا الجهد العلمي ثرى وقوى ،  
ومهما قيل ومهما كتب ، فالعلم بالمرصاد وفي قوة .

أحس أننى بين أحراش ، وفيلة وأسود ونمور ، وهذا فهد متربص ،  
وهذا قرود خائف . وهذا فيل يتحدى . والغابة كبيرة وأشجارها كثيرة  
والحيوانات فيها طبقات . والشريعة هنا واضحة ، والغلبة للأقوى . ومع  
ذلك يعيش الضعفاء من الحيوانات . ربما هى ناعمة بحياتها . أذكر أننى  
ذات مرة رأيت حصاناً فى مزرعة ، وكنت أقود سيارتى ، وقد اضطجع  
مسترخياً فى جلسته متطوعاً إلى الطريق فى كل الهدوء . سألت نفسى وأنا  
أدرسه ، وقد توقفت ، وهو فى جلسته التفكيرية : فيم يفكر ؟ قطعاً هذا  
الحصان فى حالة من التفكير . . . فى الماضى ؟ فى الحاضر فى المستقبل ؟  
أمامى فى عيني هو مستريح ناعم البال ، ولكنه يفكر من نظرات عينيه . . .  
أو هكذا تصورت . وإذا كان لا يفكر فإذا يدور فى عقله ؟ وله عقل :

قطه وسيمة على سطح عربتى فى يوم شتاء والشمس دافئة وامتلقت  
عليها فى هدوء وسعادة الدفء ، واقتربت من العربة ، ورأيتها مستريحة  
وعيناها الزرقاوتان واسعتان ومنفتحتان . وقفت أمامها ، ولم تحس بي ،  
ووجهها كله هدوء وطمأنينة ، وكأنها تحلم ، وربما هى فى حلم يقظة ،  
من بدرى ؟ وأخذتها فى حنان بين يدى ، وهى طيبة فى خضوع الالهفة  
وأسكنتها بجوار السيارة . أين كان تفكيرها وصار إليه انفعالها ؟ من  
بدرى ؟ هى - القطة - كانت حية وتفكر . . . وربما تحلم ؟ ربما  
كانت تستمتع بخبرة سابقة ، وتأمل فى خبرة لاحقة ؟ من بدرى ؟

ولنا مع الفئران قصة علمية ، ولا علاقة بها مع القطة التي يقولون أنها تحب أكل الفئران بعد أن تتلذذ بتخويئها مظهرة سيطرتها .

إذ إرتأى علماء من الستينات والسبعينات أن يتعاملوا مع الفئران كحبر الإنسان . . . ربما هم على حق ، فإذا قتلوا مئات الفئران ليشرحوا أمخاها ، فلا أحد يعارضهم إلا القسطنطين وجمعية الرفق ، بالحيوان ، أما إذا أجروا تجاربهم على أمخاخ من البشر وقتلوه ، فربما تقوم الدنيا ، إذا عرفت ، وخير أن نترك الإنسان ونتعامل مع الفئران .

وربما قد ترك العلم الحديث ، وهو يبحث عن التعلم والقدرات العقلية ، المتاهات والسلام إلى دراسة كيميائية مخ الحيوان . . . وصولاً إلى كيمياء التعلم . وخضع مخ الفأر إلى دراسة فاحصة اشترك فيها عالم النفس مع الكيميائي مع عالم في فسيولوجية الأعصاب . . . وغيرهم ، وقيل إن هناك تشابهاً بين كيميائية مخ الفأر ، ومخ الإنسان . وكان مدار من الدراسة عن الذاكرة . والمعروف أن الشخص الراشد يستطيع أن يتذكر سبعة أرقام بعد أن يسمعها أو يقرأها مباشرة . ولكنه لا يستطيع تذكرها بعد مضي نصف ساعة .

نحن أمام نوعين من الذاكرة ، ذاكرة مباشرة وعاجلة ، وأخرى آجلة تمتد إلى فترة طويلة . في الأولى التذكر حاصل وفي الثانية مفقود . ويرى العلماء أنه يحدث في المخ تأثير كهربى / كيميائى لمدة قصيرة . بعد أن يمر المختبر في تجربة سماعه أو قراءته الأرقام السبعة . والفرص هنا أن هذا التأثير الكهربى / الكيميائى سوف يمد أجل فترة الذاكرة المباشرة إلى مزيد من الدقائق ، ثم تعقب هذه العملية تموين المخ بزاد كيميائى فى طبيعته . ذلك أن العملية الأولى - فى حالة تمامها - تؤدى إلى إنتاج كميات من البروتين وإلى مزيد من مستويات النشاط الإنزيمى فى خلايا المخ . هذه العملية الثانية

تستمر إلى مدة أطول ، بل هي العضد الفسيولوجي المؤدى إلى إطالة فترة الذاكرة .

لكن ماذا يحدث لو أنه بطريقة ما أمكن وقف العملية الثانية ؟ أجرى عالم التجربة التالية : فأر على سطح يعلو عن أرضية الخجرة بضعة بوصات ، ولكن الفأر لا يطبق السكون فهو يتحرك ليقع على الأرضية . ثم يعاد إلى السطح ليقع من فوقه على الأرضية مرة أخرى . . . . . ويكرر الفأر هذه العملية تحت اشراف العالم . حتى يأتي يوم يكهرب فيه العالم أرضية الخجرة . ويسقط هذا الفأر الشقي المسكين على الأرضية ويغضب من ألم كهربته . وبقي أن يعرف العالم ماذا يسلك هذا الفأر بعد مروره في خبرة الكهربية هذه .

يأخذه في تساؤل علمي ويضعه على السطح العلوى ، وينتظر أن يعود الفأر الشقي إلى لعبته المفضلة . ويطول انتظار العالم أمام الفأر ، ويفتاز العالم في انتظاره ، والفأر مكانه ، ويراقب الفأر زميل للعالم الذى راح ليستريح . وتمر أربع وعشرون ساعة والفأر لم ينط إلى أسفل . وقد أتعب الفأر العالم بعد عودته فأوقف التجربة . . . . . إذ قد أظهر للفأر أنه يحتفظ بذاكرة ممتدة مدة طويلة عن تلك الخبرة المؤلمة .

وجاءوه بفأر ، له ذيل وصفوه بأنه أنيق رشيق ، ووضعوه على نفس السطح وبشقاوته نط ، ثم وضع على السطح وقفز . . . . . وهكذا حتى كهرب العالم أرضية الغرفة ، وتكهرب هذا الفأر في ألم . وهنا تدخل العالم ومرر تياراً كهربياً خفيفاً في مخ الفأر . خفيفاً حتى لا يسبب أضراراً لمخه ، وكل ما قصد به أن ينشط النيرونات بالمخ ، وبذلك يمنع تكوين العملية الثانية وهي الخاصة بانتاج البروتين والنشاط الانزيمى . وكما توقع العالم فإن هذا الفأر الذى تكهرب عند ما سقط على الأرضية ثم دغدغ مخه بتيار كهربى

خفيف ، ووضع في اليوم التالي على السطح العلوى ، وترك لشقاوته ،  
نظ إلى أسفل وكأنه لا يذكر شيئاً عن سقوطه وكهربته بالأمس .

فأر ثالث - وما أكثر وأرخص الفئران - بعد أن سقط على الأرضية  
المكهربة ، ترك فترة زمنية أطول مما انقضت في حالة الفأر الثاني صاحب  
الذيل الأبيض بين كهربته ومرور التيار الكهربى في مخه . وبعد انقضاء هذه  
المدة الزمنية مرر العالم تياراً كهربياً في مخه ، وأعيد في اليوم التالي ووضع  
على السطح العلوى . . . . لكنه لم يقفز إلى تحت ، ربما تذكر ما حدث  
له بالأمس .

معنى ذلك أن العملية الأولى ( في الذاكرة ) كان لها من الوقت ما سمح  
بتكوين العملية الثانية التي لم يستطع التيار الكهربى الخفيف أن يؤثر فيها .

وفي إحدى التجارب لخميس ماك جو من جامعة كاليفورنيا استخدم  
ثمان مجموعات من فئران من أصلين وراثيين مختلفين ، وعرض هذه  
المجموعات لخبرة تعليمية مرتبطة بالخروج من متاهة بسيطة . وبعد أن تمت  
عملية ( التعلم ) هذه أخذ أربع مجموعات من كل أصل وراثى وحققها  
بجرعات من مادة الميترازول تفاوتت من حيث كيتها . وقد ظهر أن هناك  
إختلافاً تبعاً للأصل الوراثى في كفاية التعلم . ثم ظهر أن هذه الكفاية زادت  
بدرجة ملحوظة بعد الحقن الميترازولى ، وبالذقة فإن الفئران الحقونة أظهرت  
تحسناً بنسبة ٤٠ ٪ عن أشقائها ( من نفس الأصل الوراثى ) والتي لم تتعرض  
للحقن . بل إن الفئران ( الغبية ) هند ما حقنت بجرعة قدرها عشرة  
مليجرامات لكل كيلوجرام من وزنها تفوقت على الفئران ( الذكية ) التي  
لم تتعرض للحقن

في الرأى أن الميترازول إلى جانب تسهيله عملية التعلم فهو يعمل على  
المساواة بين الفئران ذوات الصفات الوراثية المختلفة . فكلما زادت الجرعة

المعطاء للفأر الغبي من خمسة ملليجرامات إلى عشرة زادت قدرته التحصيلية والأدائية . ولكنه وجد أنه إذا زادت جرعة الغبي عن عشرة ملليجرامات ( لكل كيلوجرام من وزنه ) حصل تدهور في تعلمه ، نفس التدهور الذي حصل للفئران الذكية التي زيدت الجرعات التي أعطيت لها عن خمسة ملليجرامات . معنى هذا أن الجرعة المعطاة تختلف من كائن ( فأر ) لآخر ، أو أن هناك تفاعلاً بين الوراثة والدواء ، وقد يعنى هذا أيضاً أن هناك حداً للقدرة العقلية لا يستطيع الكائن تجاوزها .

وقد أبانت دراسات أخرى أن الأدوية التي تعطى للمفحوصين لا تنتج نتائج واحدة ، أى أنها لا تؤدي إلى إحداث تأثيرات متشابهة . فعند بعض الفئران أدت جرعة الدواء إلى تحسن في الانتباه ، وعند البعض إلى زيادة المهارة في معالجة المشكلات ، وعند بعض نالت إلى ارتفاع كفاية المتابعة ، وعند مجموعة رابعة إلى تفوق في الذاكرة المباشرة ، وعند آخرين في الذاكرة طويلة الأمد . أى أن الأدوية المختلفة لها تأثيرات مختلفة تبعاً للفروق الفردية بين ( الأفراد ) ، وبالنسبة أيضاً لنوعية الأعمال العقلية التي تنتج بعد تعاطي الدواء .

مجموعة من العلماء ، وأيضاً من كاليفورنيا ، ولكنهم لم يتدخلوا فسيولوجياً أو كيميائياً ليعرفوا نتائج هذا التدخل ، كسابقيهم ، لكنهم تعاملوا مع حيوانات سوية ثم درسوا أثر الذاكرة على كيميائية وتشريح المخ ، أى ماذا يحدث في المخ بعد أن تتكون وتكتمل عملية الذاكرة . والقصة ببساطة أنه إذا كانت عمليات الذاكرة طويلة الأمد تتضمن نشاطاً أكثر في الأنزيمات المخية ، فإن الحيوانات التي تعرضت لعمليات تعلم وتذكر كثيرة يجب أن تكون مخاها أنزيمياً مختلفة عن تلك التي لم تتعرض لتلك العمليات والتحديات العقلية . لهذا تم للعلماء الأربعة إحضار ١٢ زوجاً من الفئران التوائم الذكور ، وبالقرعة أخذ واحد من كل توأم وفصل عن

( أخيه ) ثم نقل الاثني عشر فأراً ووضعت في قفص كبير مزود بالمراجيح وسلام وعجلات وألعاب فثرانية مختلفة ، والقفص مضاء بالكهرباء التي تغرقه كله ، وتنساب إليه أصوات عديدة بعضها صاحب وبعضها هادئ . . . . باختصار بيئة كلها حركة ونشاط وحيوية . . . . بل إنها تنزه كل يوم لمدة نصف ساعة تزور فيها أماكن مختلفة . وتعرضت تلك الفئران لخبرات تعليمية مختلفة لإزدادت في تعقدها مع نموها وعمرها الزمني . واسقمر هذا البرنامج ( التعليمي ) لمدة ثمانين يوماً .

أما أشقاء المنتخبين بالقرعة فقد عاشوا نفس الفترة في حياة انغزالية ، كل فأر في مكان ضيق صامت صامت القبور مظلم تقريباً ، ويقدم الطعام لكل فأر من خلال فتحة ضيقة لا تسمح إلا ببصيص يسير من اللضاء . لكن الأمر الهام أن طعام المحظوظة كان هو نفس طعام التسة وبنفس الكميات . فرق بين سكن انغزالي وبين حياة جماعية يجد فيها الفأر الذي يتعلم أسرع جزاء لذيذاً يبسطه .

وعندما بلغ الفئران سن الخامسة بعد المائة يوماً تقرر إعدامها وتشريح مخاخيها . وكررت التجربة على فئران أخرى وأخرى . . . . عدة مرات .

وكانت النتيجة أن الفئران سعيدة الحظ تمتعت بقشرة مخية زادت في اتساع وفي عمق وفي الوزن ، ويعزى هذا إلى زيادة في عدد من خلايا مخية معينة تلعب دوراً حيوياً في تغذية النيرونات ، بل ربما هي صاحبة الفضل في تثبيت الذاكرة لأمد طويل . ويعزى هذا الاتساع في التشرة المخية أيضاً إلى زيادة حجم أجسام الخلايا النيرونية ، وأيضاً إلى زيادة قطر الأوعية الدموية التي تمون التشرة المخية . . . . بل وجد أن بمخاخ هذه الفئران بروتين معين .

وقيل إنه أمكن تصنيع هذا البروتين . . . . . الذى تكون نتيجة تواجد الفئران فى بيئة ( تربوية ) ممتازة إذا قورنت بالسجن الانعزالى . وقيل إن مخاخ فئران أخرى حققت بمستخلص هذا البروتين ، وانتقل إليها أثر التعلم . . . . . وقيل إن المستقبل خطير بالنسبة للبشر فى تعلمهم . . . . . وأن القوالب التقليدية المعروفة سوف تتغير ، وستكون هناك أمصال وحبوب وبرشام ( غير هذا المعهود فى الامتحانات ) . . . . . وأشياء أخرى . . . . .

والمستقبل آت بمفاجآت ، وآت بأحداث عجيبة غريبة تذهل المفكر . ويستعد القوم فى دول متقدمة إلى إجابة عن سؤال قد يبدو على السطح ساذجاً وفى أعماقه موجاً : هل المدارس بشكلها ومضمونها المعهود هى الصيغة المعقولة المقبولة للمستقبل ؟ وتطالعنا اليوم حركة اللامدرسية . . . . . والأمر كله يتطلب الكثير من التريث .

## الكتخذا وسقاء حريمه ولوسيان

كان والد أحمد سقاء حريم يسكن درب سعادة بالقرب من باب الخلق ، ولكنه كان شديد التطلع إلى مستقبل ابنه ، ربما لأن صناعته لم تكن تعجبه وفيها شقاء وتعب وغلو ورواح والكسب محدود ، وإن كان ينال فى المراسم والأعياد بعض المنح ، لكنه كان يقبلها على مضض . وأدخل أحمد كتاباً قريباً من البيت ، وسيدنا فيه رجل طيب استنفذ سنوات طويلة يعلم الصبية ، وكانوا يتندرون عليه أن شهادته لا تقبل فى المحاكم وأن عقله يتأثر بعقول الأطفال الصغار .

وكانت أمور العائلة تسير فى فقر هادئ ، ولكن واحداً من أولاد الحرام تعرف على والد أحمد وزين له أمراً ، ربما ذكره صراحة أمين باشا

سامى فى « تقويم النيل » . إذ كان لمحمد على باشا الكبير مجموعة من المقربين إليه ، وكانوا أهل ثقته وموضع سره . وكان واحد منهم اسن لآظ أوغلى . وعلت منزلته حتى صارت الأسرار الكبرى من نصيبه ، بل عهد إليه فأسس دواوين الحكومة ، وصارت له يد طولى للتصرف فى شئون الإدارة .

ثم عمد إلى ترتيب أعداد من الجواسيس يستضافون فى بيوت الأعيان والأغنياء وبعضهم يجلس فى المقاهى ، والبعض يندس فى الموالد ، وكلهم فى أزياء مختلفة وعلى هيئات متعددة . ثم يتلمسون الأخبار والمعلومات وقد يستدعى الأمر مصادقة عابرة وانفاق قليل من النقود حتى تأنس القريسة إلى الجاسوس فتسكب منه المعلومات المطلوبة . وتتجمع المعلومات على قرطاس ورق يوضع فى فتحة بيت بحى السيدة زينب ، تسكنه سيدة تعرف العربية والتركية ، وكان محمد على قد أحضرها لتعلمه بعض اللغة العربية . ولكل رسالة ميعاد . . . ثم تحمل السيدة هذه ( التقارير ) كل يوم إلى القلعة - والمسافة ليست طويلة - حيث تجد الشيخ يوسف ( وعلى اسمه الميدان المعروف فى جاردن سيتى كما سماه الانجليز فيما بعد ) وتسلمها له . ويسلمها هذا إلى لآظ أوغلى .

ودخل أبو أحمد اللبنة ، وجرت النقود سريعة وكثيرة فى يديه . وكان يمكن لهذا الحال أن يستمر ، وكان يمكن أن يرث ابنه مهنته خاصة أنه بدأ فعلاً يفك بعض الخط وحفظ فعلاً ربعاً من القرآن الكريم ، ولكنه تقدم أكثر فى العمليات الحسابية . وربما فكر أبو أحمد أن يتزوج بعد أن كفى بيتاً ما يريد من غذاء وكساء ومأوى وصار عنده فيض كان يزداد بكثرة الرسائل التى يدرسها فى بيت انسيده التى علمته القراءة والكتابة فى زمن قياسى ، فقد تحمس ليرتفع درجات . وقد ارتفع . وتقرب من الشيخ يوسف ومن لآظ أوغلى .

وتولى ابراهيم حكم مصر وتضاءلت سلطة محمد على التي حمت لآل أوغلي .  
كتخذ مصر أيامه وكذلك الشيخ يوسف وبالتالي رجالهما ومنهم أبو أحمد .  
بل شاعت أقوال عن احتمال القبض على الذين تعاونوا مع كتخدا مصر  
المحروسة . وكان هذا في بداية عهد عباس . فاختبأ أبو أحمد مع عائلته ،  
وعجب أحمد لهذا التغير المفاجئ . وكان أبوه قد تزوج ولكن زوجته  
الثانية وقد رأت الفقر يقرب منه آثرت أن تبقى مع عائلتها في أرض الطبالة .  
وبدأت الحلقات تضيق حول ( أبو أحمد ) فحمل ما يستطيع ، وكانت  
السكة الحديد قد دخلت مصر ، فركبها إلى قريته بالقرب من طنطا ،  
وكان من أشد المعجبين بالسيد البدوي . وكان أحمد يكبر وحاول أن يدخل  
كتاباً ، ونجح ، ولكن سيدنا كان فظاً غليظ القلب فوجد فيه غلاما  
قد كبر بل صار منافساً له . وطرده .

وطال الوقت وأحمد لا يجد مكانا يتعلم فيه فقد أقفل عباس معظم  
المدارس ، كما أن والي سعيد باشا التحف بحكمته القائلة أن الشعب الجاهل  
أسلس قيادة من الشعب المتعلم . وضافت الدنيا في وجه أحمد واشتد ظلامها ،  
وكان عليه أن يمسك القأس ويضرب في الأرض بجوار والده . . . .  
فالأسرة يجب أن تأكل .

وصارت تنابه حالات من الفزع والصراخ ، ولم تفلح زيارته لضريح  
السيد البدوي ولا النذور التي كان ينفذها والده ، ولا الأحجية ولا الترقيات  
الصادرة من بعض الدراويش ، وكثر البخور في البيت الصغير لكن النوبات  
لم تنقطع . حتى جاءهم من أفتى بضرورة أن يتزوج أحمد .

وجاءوه بعروسة صغيرة لا تعرف بعد من أمور الدنيا أكثر من أنها  
فقدت أباه وأمه في حادثة وهما يُركبان عربة يجرها حمار ومحملة ببشر  
غيرهما . . . . وأطاح بهما هذا الوارد الحديدى الجديد من بلاد الغرب ،  
( ٦ م - طفل غاضب )

وتناثرت الأشلاء . وتزوج أحمد في حجرة صغيرة مجاورة ليس بها إلا النذر اليسير من الأثاث . . . . . وربما كان يكنى ، فالعروسة الصغيرة وجدت متعة كبيرة مع هذا الغريب ووجد هو معها أذناً تسمع شكواه ، وتظل تسمع وهي صامته أو مؤمنة على قوله . ولم يجد هذه المتعة مع أحد سابقاً . وظل يحكى ويقص دون أن ينسى واجباته الأخرى . وكافأته عروسته الصغيرة بمزيد من الإنصات ، وكانت أحياناً تأخذه إلى صدرها عند ما يبكي غضباً لا عناء هؤلاء الذين حرموه التعليم .

و ذات فجر جاء زائرون يطرقون باب هذه الحجرة الصغيرة . ووقف أحمد أمامهم وما زال النكرى في عينيه بينما غطت عروسه وجهها استحياء وكل جسمها يرتجف . وكان كلام حول زيارته للمركز طلباً لفرصة للتعلم ، ثم عن سنه وعمله وأبيه وأسرته . . . . . وذهب مقتاداً معهم . . . . .

وتمر شهور طويلة قبل أن يعلم أحمد شيئاً عن والديه واخته وزوجته . فوسط زوبعة رملية تقابل مع حسن الذى وصل حديثاً إلى هذا الموقع من حفر قناة السويس . ولم يعرف حسن أحمد بادئ الأمر فقد ازدادت بشرته سميراً وازداد جسمه نحولاً .

وهدأت ذرات الرمال وخرج الجميع من المواقع التى احتموا بها من العاصفة ، وعادوا إلى العمل فإن سباط الملاحظين والمراقبين من جنسيات عديدة كانت أسرع فى معاملتها من مجرد التلكؤ فى حركة من عامل . وجاء وقت يأكلون فيه وترقد السباط على الأرض وتعود الآدمية إلى العمل أو قل آلات الحفر البشرية .

— مبروك يا أحمد فقد رزقت ولدأ اسموه ، أحمد أيضا ، زوجتك شوق ووالدك ووالدتك بخير ، وقد خطبت اختك . . . . . برقية شفهوية فيها كل الأخبار . ومئات الألوف من العمال اقتيدوا إلى هذا المكان فى

الصحراء يريدون أن يعرفوا شيئاً من الأخبار عن أهلهم . وملايين من المصريين يريدون أن يعرفوا أخباراً عن أبنائهم هناك في مواقع حفر قناة السويس .

وجه نحاسي وشعر أصفر وقوام ممشوق وورق ملفوف بين يديه ، ثم عربة يجرها حصان رشيق . وقفت . واتجه إليها ، وقبل أن يجلس فيها أصدر أوامره لبعض الخلق وبلغة أجنبية .

وبدأ الغول القابع في صدر أحمد يستيقظ . وبدأ جام الغضب يفور ويغلي ، فألقى بالمحول الذي في يده واندفع إلى العربة وأمسك لجام الحصان وهو يصبح موجهها كلامه إلى الرجل نحاسي الوجه :

انت لست خيراً مني حتى تنال تعليماً وتكون انت ما انت فيه . . . .  
خذني أو ارسلني وعلمني وسوف أكون مثلك نعم مثلك : . . . بل ربما خيراً . . . فهذه أرضي عندما أعمل فيها سأكون أكثر حماساً . . . .  
العلم . . . وسوف أعطى بلدى الذهب ! ! والتف خلق حول أحمد وحملوه . سأل الرجل عما قاله أحمد . . . فطلب مقابله . عرف أحمد أن مسيو لوسيان المهندس الفرنسي في الموقع يريد مقابله . وكان طبيعياً أن يغسل وجهه وينظف ملابسه أو يغيرها وأن تتخلص يدها وقدماه مما فيها في محاولة أن يظهر لون الجلد كما أراد الله تعالى .

أوصى المهندس الفرنسي لوسيان بأن ينال أحمد قسطاً من التعليم يشرف عليه مركز الشركة بالقاهرة ، وأن يجيد الفرنسية ويتعلم شيئاً من العلم يساعده أن يكون أحد صغار المساعدين له . . . . . صرت أعدد النجوم وأنا قريب منها ، فلم أتم وصعدت إليها على أحبال الرجاء والآمال والفرح . . . . . وكنت مع السماكين علواً . . . . . وغداً القاهرة المحروسة . . . . . ثم إلى باريس .

نكنن لابد من مقابلة الشيخ رفاعه الطهطاوى وقد عاد من السودان ، ولابد من قراءة كتابه « تخلص الأبريز إلى تخلص باريز » . . . هل أخذ زوجتى معى حتى لأفتن بالمرأة الفرنسية التى أبدع وصفها الشيخ رفاعه . . . مؤكداً أن وجودها فى المجتمع يكسبه جمالا وتضفى عليه بهجة وأنساً وحياة . . . ولكننى سأبعد عن عقائد الفرنجة القبيحة الشذيمة .

ثم ربما فشلى فى دخول الأزهر يعوض الآن، وقد بكيت أيامها وعوضنى الله على يد هذا الفرنسى . . . أنا لم أره فى حياتى ، ولم أكن أبدأ كما كنت أمس . . . ولكنه القدر . . . وهذا مكتوب . . . أن يضطر والدى إلى التعرف على الكتبخذا ثم إلى الهرب إلى هذه القرية ثم إقتياد إلى حفر القناة . . . ثم . . . ثم لابد لى من زيارة على مبارك ولعله عاد من الحرب . لقد حدثنى زميل لى فى الحفر هو من عرب الساعنة ، حدثنى عنه وكيف هاجر إليهم من برنبال - دقهلية . وكيف حكى لهم عن أبى عسر فقيه الكتاب وجعله يكره التعليم ، لكنه كان مصمماً عليه ؛ حتى إذا حلت ضائقة مالية بأسرته هاجر إليهم ، ثم كيف جلس إلى أبى الحضر فى كتاب قرية قريبة ولم تجد رشاوية لسيدنا قاسى القلب. ثم كره الكتاب كرهاً شديداً . . . ثم . . . و ثم درس فى فرنسا وتعلم كثيراً عن آراء المفكرين .

وتمضى رحلة أحلام الآمال وأنا مستمتع كل الاستمتاع بها وهى خير ألف مرة من النوم . . . كنت أنام كل ليلة منذ جئت هذا المكان - أو الأصح منذ أحضرونى إليه - وأنا لأعرف رأسى من قدمى فكان التعب يأخذنى أخذ عزيز مقتدر فاستسلم للكرى حتى فجر يوم جديد .

وطلعت الشمس وكان الخبر قد ذاع ، وغنى الرجال وزغردت النسوة الموجودات هناك ، وأنا أقرأ ما حفظت من آيات الله البيئات . وعلا الفرح

المكان حتى ظهرت السياط واكتسحت الجمع الغفير . ثم جاء لوسيان وأشار وتبعته إلى خيمته . وتولى المترجم عمله وعرفت أنني سأذهب الظهر إلى القاهرة . وعلى باب الخيمة وقف ضابط تركي . وسمح للخلق بتحتي في فترة الغداء . . . . . وذهبت .

ربي ياخالقي . . . لك الشكر . . . قريباً أصعد إلى المركب من الإسكندرية وأعيش في البحر أياماً وليالي ، لأهَاب الموج وأشوق إلى مارسيليا وباريز . كما عاش علماء بلدي هناك سأعيش أما العلم فسوف ألتهمه التهاماً . . . وسوف أنجح . . . أرى وجوه أساتذتي تظفر إعجاباً بهذا المصري القادم من ريف مصر . . . نعم لستم أكثر ذكاء منا ، ولكن أطفالنا يصبحون طالبين الفرصة . . . وسوف أعود وأتولى مناصب هامة . . . سوف يفخر والدي وأهلي بي ، وزوجتي وابني أحمد ، ولا بد له من تعليم راق فهو ابن عالم . . .

وعند بليس توقفنا ، وأخذني بعض الجنود يرأسهم ضابط تركي لم يكن يتاسم ، ولكنه كان ينظر إلى شدرأ ، ثم دفعني ، وشمت نذائر سحب قائمة لا تبشر بخير ، وحاولت التوقف لاستجلاء الأمر ، ولكن الدفعة كانت قوية تلتها ركلة من قدم غليظة ، ووجدت نفسي في حجرة كبيرة وقد إنكفأت على الأرض غير الحانية . وسمعت أصواتا بلغة تركية تيننت منها . . . فلاح . . . ونزلت على جسمي السياط كالسيل . . . ثم لم أدر ماذا حدث .

أرى سفينة كبيرة في ميناء الأسكندرية تطير في الجو وأنا ورائها أحاول اللحاق بها ، وأصوات الركاب تضحك ساخرة مني . أرى معالم باريز وشوارعها تهز ضاحكة من غفلي وسذاجتي ، والدي يبكي وأمي تلطم خلدتها وزوجتي ذاهلة . . . وأحس آلاماً مبرحة تفتك بجسمي من كل جانب وفي كل مكان وكأنما أقرفت خيانات وذنوب الدنيا، وصار جلدي

ولحمى وعظامى نهياً لأشنع إنتقام : أحس دماً ينزف من أنفى وينساب من فى  
والدنيا تتحول إلى ظلام . . .

وفجأة زالت كل الآلام ، وكنت هناك فوق : رأيت جسمى على الأرض  
مسجى وزبانية جهنم حولى والدماء تحيطنى والسياط تسورنى ، وأجسام غليظة  
تحيط بى . . . رأيتنى جثة هامدة وسط القتلة ووجوههم راضية قانعة بما فعلوه  
وأنا هناك فوق حيث لا آلام ، وحيث إرتياح ولا إنتقام . . . أرى أباً يصلى  
وأماً تترحم وزوجة تلهم الصبر والسلوان .

\* \* \*

وقد أحس القوم فى موقع القناة شيئاً مريباً ، فقد مضت أشهر ولم يسمعوا  
عن أحمد ، وكان بالنسبة لهم شعاعاً سوف يضىء ، وتمنوه مهندساً أو مساعد  
مهندس مساوياً للفرنجة ، ويفخرون به ، وربما يشكون بعض متاعبهم إليه.  
ويمتد صبر المصرى وقتاً طويلاً آملاً فى خير . ولكن الأيام تولى ولا أخبار  
عن أحمد . وينتشر وباء ، وتتحطم الأواعى الفخرية ، وتسوء المعاملة  
ويبدأ بركان الغيظ يغلى .

وتخرج جماعات صغيرة طفح بها الغضب لتسأل عن أحمد ومصيره . وتخرج  
عبارات غامضة ولكنها تطمئن . ولكن القوم لا يعرفون الطمأنينة وتزداد  
الأعداد معبرة عن احتجاجها فى سؤالها عن أحمد ، وقد صار رمزاً . ثم ذات  
صباح توقفت الدنيا فى نظر المهندسين الفرنسيين فقد وضعت الفؤوس على الرمال  
ووقف الرجال رافضين العمل حتى يجاب عن السؤال . وامتلأ الجو على خط  
القناة بهذا الخبر الوارد بقتل أحمد ، فانسحبت كل الفؤوس عن الحفر ،  
ووقف الرجال الذين خضعوا للون البرونزى الذى فرضته الشمس ، وقفوا  
فى نشوة أشبعت بطون نفوسهم المشتاقة إلى كسرة من خبز الحرية والآدمية .  
وصار اسم أحمد رمزاً ، وأخطر ما يخشاه الظالم ظهور رمز تقتنع به الجماهير.

وقد حدث هذا فجأة ، والفجائية كانت لها رواسب كثيرة وعديدة وكانت الجماهير تنتظرها في أشد حالات اللهفة . إذن توقف العمل والرجال واقفون والشمس توارت خلف سحب داكنة .

تدلت خيوط ( المكرونة ) عل صدر الخديوى في قصره الكبير عندما سمع هذا الخبر . هذا نهار أسود لأنه أفقد عليه لذة أكلته المفضلة . ووقف وكرشه يسبقه ملقياً عشرات الأسئلة وهو مازال يتطلع إلى طبق ( المكرونة ) الذى أرغمته حالته النفسية على هجره ، ولو قليلا .

\* \* \*

ربما أحس الشاب أحمد عرابي معاني أخرى ، وعمل عقله في تفكير سريع وعميق أثرته أخبار عن هذا ( الأحمدي ) الذى أوقف العمل في القناة ، وهو غير موجود ، وجاءت عرابي أخبار أخرى هزت وجدانه ومشاعره ، وأحس طعنات من خناجر تهدد بقتل المصرية القابضة في أعماق نفسه .

كان أحمد عرابي ضابطاً صغيراً سرعان ما كثرت النجوم على كتفيه . . . ويكثر اعتزازه وتقديره بهذا المجهول واسمه أحمد .

عندما وصل أحمد عرابي إلى ميدان عابدين راكباً حصانه ، كان أحمد في وجدانه . . . وتكلم عرابي في عظمة المصري .